# القسم الرابع
# الحكم الاسلامى

## ايام الدولة الاغلبيـة

نشـأة الدولة الاغلبية — وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتلو هـذه الآية الكريمة يـوم الفتح الاكبر ، وهو يحطم الاصنام داخل البيت الحرام ، واضعاً بذلك حداً فاصـلا بين هدي الاسلام وضلال الجاهلية ، فاتحاً بذلك عهداً جديداً فى تاريخ الانسانية هو عهد النور والمدنية الحقة ، عهد تحرير الفرد والجماعة من ربقة الذل والعبـودية لغير الخالق ، عهد تحرير العقول من الاوهام والاباطيل ، عهد التساوي الحق الذى لم ير له العالم قبل ذلك ولا بعد ذلك مثيلا .

التهبت يومئذ نيران الثورة العالمية في سبيـل التحرير والمعرفة ، يحمـل رايتها رفيعة وهاجة قوم اسلموا لمحمد وآمنوا بما جاء به من الهدى ودين الحق فتدفقوا سيلا نورانيا جارفا يكتسحون الظلمات ويدكون اسس القيصرية والكسروية ، ويقيمون على تلك الانقاض البالية عدل الاسلام وحرية الاسلام واخوة الاسلام .

وانه لم تكد تنقضي ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول الاعظم حتى كان ما اريد ان اسميه « امبراطورية الاخوة الاسلامية » يشمل فضلا عن بلاد العرب العراق وفارس وما وراء النهر وبلاد الشام ومصر وطرابلس وشمالنا الافريقي حتى امواج المحيط الاطلسي .

على ان اصعب الفتوحات الاسلامية مراساً ؛ كان بلا ريب فتح اقطار هـذا الشمال الافريقى ، وذلك لبعدها من جهة عن مركز الخلافة الاسلامية، بالمدينة كان

او بدمشق او ببغداد ، وصعوبة المواصلات بين قلب المملكة ومصدر الامر والنهي وبين هذه البلاد النائية ، ولأنها من جهة اخرى كانت تسكنها امم البربر الابية ؛ وهي مجموعة اقوام ما وهنت امام جبروت الظالمين وما ضعفت قواها تجاه ارهابهم وبطشهم الشديد ؛ وما استكانت لسلطان الاستعباد ايا كان مصدره ؛ وسواء جاءت من رومة اغلاله او صبت في بيزنطة قيوده .

فالبربر على تفرق شملهم وتخاذلهم كانوا اكثر الناس استماتة في سبيل الحرية واشد الناس تضحية في ميدان الاستقلال ؛ ولقد كانوا طيلة العهد الوندالي يمسكون بين ايديهم زمام امورهم ؛ وقد تعاونوا مع اولئك الفاتحين الهمج ، على تخريب ما شاده الرومانيون لأنفسهم بهذه الديار من معالم وآثار ، ثم كانوا طيلة العهد البيزنطي الخرب يباشرون داخل بلادهم مقاليد الحكم تاركين لرجال بيزنطة الاحتلال العسكري والادارة الاسمية والرسمية .

فلا غرو ان رأينا رجال البربر من جبال طرابلس الى كتلة الاطلس يقومون مرة اثر اخرى ضد غارات العرب الفاتحين منذ غزوة عبد الله بن ابي سرح سنة ٣٠ الى ان تمهد الامر نهائيا للفاتح الاكبر موسى بن نصير حوالي سنة ٩٠ هجـ(١)

فنحن نرى ان فتح العرب للمغرب قد استغرق من جهودهم زهاء الستين سنة واستنزف من قواهم خيرة الجند وجلة القواد ؛ كمعاوية بن خديج وعقبة بن نافع العظيم غالب كسيلة ومؤسس القيروان وحسان بن النعمان قاهر الكاهنة وغيرهم من ابطال العرب واشبال المسلمين ؛ ولقد كان البربر ان خسروا المعركة اظهروا الانقياد والطاعة عن مضض ؛ فلا تكاد تتغير الحالة بتغير عامل من العمال او بتمرد

---

(١) في سنه ٩٦ توفي بدير مروان الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وكانت ايامه من اسعد ايام الدولة الاموية ؛ فيها تم فتح اسبانيا وجنوب فرنسا ، وبلاد الترك وفتح القائد محمد بن القاسم الثقفي اكثر بلاد الهند .

فى الجند ، حتى يعودوا الى الثورة والعصيان مرتدين عن الدين فى اكثر الاحيان.

بقيت الحالة كذلك بين صفو وكدر ، وامن وانتقاض ، طيلة ايام الامويين واوائل عهد العباسيين .

وانه لمن اكبر نكبات هذا الشمال الافريقي ، سواء فى اول العهد الاسلامي ، او في غيره من العهود : كثرة تداول الولاة عليه ، فلا تكاد تستقر به قدم واحد منهم فيدرس حالته ويدرك قيمته ، ويختلط بشعوبه وامصه ، ويأخذ باسباب العمران والانشاء والتكوين حتى تلعب في مركز الدولة البعيد الدسائس والفتن وتعمل السنة السوء والوشاية اعمالها ، وتلعب الغايات النفسية او العصبية ألاعيبها الخبيثة ، فيصدر الامر بتولية عامل جديد يكون فى الكثير من الاحيان عدو العامل القديم فيفد على البلاد يحدوه حب الانتقام ، ويسفر ذلك عن وقائع تسيل فيها الدماء ، ويستفيد البربر الواقفون بالمرصاد من ذلك ، فتكون الثورة ويكون الانتقاض .

انما الى جانب هذا الاضطراب في السياسة كان الدين الاسلامى على يد رواده الامجاد يستقر استقراراً متينا فى البلاد .

ولقد فهم البربر اخيرا ؛ بعد طول اختلاطهم بالعرب ، واخذهم الدين عنهم ان هؤلاء الفاتحين ليسوا كمثل الذين سبقوهم من الفاتحين ، فسمو اخلاقهم ونبل عواطفهم وبساطة عيشهم وسهولة دينهم الفطرى ؛ كل ذلك يجعل بونا شاسعا بين هؤلاء واولئك ؛ ومن ثم امكن اتحاد العرب والبربر تحت راية الاسلام المسوية ، وتحقق لهذا القطر ما كان يرجوه منذ قديم الازمان ، ولم يتحصل عليه قبل ذلك ؛ تحقق له الاستقرار الديني الذى دام منذ ذلك العهد الى يومنا هذا ، رغم ما وقع من شنآن سببه خلافات مذهبية قد استعملت في اكثر الاحيان وسيلة سياسية يراد بها الوصول الى الحكم .

وما عتم ذلك الاستقرار الديني ان اسفر عن استقرار سياسي بصفة اعلان القطر المغربي الاسلامي استقلاله عن مركز الخلافة الاسلامية؛ وادارة اموره المحلية بواسطة الانجاب من بنيه .

لقد كان المغرب الاوسط ـ قطر الجزائر ـ اسبق جهات المغرب لاعلان الاستقلال ، وذلك بتأسيس الدولة الرستمية ؛ على يد كرام برزة من رجال البربر اسلموا وحسن اسلامهم ، واعتنقوا مذهب الامام ابن اباض رضي الله عنه ، وقد كان اول مذهب اسلامي انتشر في بلاد الاسلام ، واعتنقه قوم كثيرون بالشمال الافريقي والبلاد الطرابلسية ، ولقد قام بكبر تأسيس الدولة الرستمية البربرية الاسلامية عبد الرحمان بن رستم الفارسي سنة ١٤٤ (١) فحكمت البلاد حكما اسلامياً يذكر في كل عصر ويشكر ، وسجلت في تاريخها صفحات نبل وفخار لا تعتدي على ذكراها الطيبة الايام .

واذ كان العقد قد انتثر من الوسط ، واستقلت عن الخلافة العباسية وعن ولاتها بالقيروان دولة بني رستم في تيهرت .

لم تعتم جهات الغرب ان اقتفت اثرها واعلنت استقلالها على يد بطل من ابطال العرب وسيد من سادة الاسلام وشريف من اشراف قريش ، هو المولى ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذلك بمدينة مليلي سنة ١٧١ هـ ( ٢ ) ( ٧٨٤ ميلادية )

---

(١) وقع هذا بعد انهيار الدولة الاموية بالشرق ، بمقتل آخر خلفائها مروان ابن محمد سنة ١٣٣ هـ ( ٧٤٥ م ) وقامت الدولة العباسية مقامها معتمدة على الفرس حاكمة ببغداد .

(٢) بعد سنة ، اي عام ١٧٢ ، مات بالاندلس صقر قريش عبد الرحمان الداخل الاموي ، الذي استقل ببلاد الاندلس وانشأ فيها دولة اموية جديدة عتيدة

فما كادت تنتهي ولاية الامير روح بن حاتم بالقيروان ؛ سنة ١٧٥ حتى كانت الخلافة العباسية لا تحكم الا البلاد التونسية وبلاد الزاب ؛ اي القسم الشرقي من قطر الجزائر الحالي ؛ وما كادت تستقر بالبلاد اقدام الوالي الجديد ابراهيم بن الاغلب الكبير ، اثر حوادث كثيرة واضطراب ، حتى رأى ، ورأى وجوه القوم وكبراء الامة معه ، وجوب الانفصال الاداري عن بغداد والاستقلال بامور البلاد فراسلوا امير المؤمنين هارون الرشيد فى ذلك ، وجاءت المصادقة منه بعد استشارة اهل الحل والعقد بمركز الخلافة سنة ١٨٤ ( ٨٠٠ ميلادية ) وتعاقد الفريقان على ان تبقى الامارة الجديدة معترفة بسيادة الخلافة العباسية ؛ وان تدفع خراجا سنويا لبغداد ، مقداره ٤٠ الف دينار متنازلة عما كانت تتقاضاه اعانة لها من خزينة مصر ومقداره مائة الف دينار .

تمت الامارة بذلك لأبراهيم ابن الاغلب واصبح فى البلاد ملكا مستقلا مصلحا معمراً ساهراً على امور مملكته باسطاً العدل والامن بين سائر طبقات رعيته ؛ والتف حوله في تضامن اسلامي « ووطني » بديع رجال العرب والبربر فتوطدت اسس الدولة واقبل الناس على صالح الاعمال ؛ والناس على دين ملوكهم . وهكذا نشأت الحضارة الاغلبية الزاهية الزاهرة ؛ واصبحت القيروان العظيمة عاصمة ملك وسلطان امتها رسل الامبراطور شارلمان مهنئة (١) وامتلات قصوراً

---

دامت هنالك زهاء ٢٩٠ عاماً ودامت ايامه ٣٣ سنة وانشأ بقرطبة التي اتخذها دار ملكه المسجد الاعظم الذى هو الى يومنا هذا اعجوبة الزمان .

(١) جاءت رسل امبراطور الغرب شارلمان مهنئة بالملك والاستقلال راجية من ملك القيروان ان يرجع للمسيحية بقايا شهدائها وآثارهم ومخلفاتهم بالبلاد الافريقية فاقبل ابراهيم ابن الاغلب سفارة شارلمان بقصر العباسية ، جوار مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالا منعدم النظير واجابهم الى مطلبهم فرجعوا مبتهجين ؛ ثم ارسل

وبساتين ، ومساجد ومدارس ودواوين ، وارسلت العمال من قبلها الى اقصى جهات المملكة وازدهرت المدنية وانتشرت العلوم والآداب وكثر العمران ، فلم تنقض ايام ابراهيم الكبير وابنه الاول عبد الله وابنه الثانى زيادة الله حتى كانت دولة بنى الاغلب من ازهى ممالك المسلمين ، وبلغ خراجها يومئذ الف الف درهم ( نحو ٨٠٠٠ كيلو من الذهب ) .

ولا نقلن لك فى خاتمة هذا الباب ، ما قاله الاستاذ فكتور بيكي فى كتابه « مدنيات شمال افريقيا » عن الدولة الاغلبية : « لقد سار الامراء الاغالبة سيرة قسط وعدل محترمين للحقوق مظهرين جميل الاستعداد للقيام بجلائل الاعمال لفائدة الامة » .

« من ذلك انهم انشأوا وظيفة تلقى نوراً غريبا على المجتمع فى ذلك العصر فلقد نصبوا في كل مدينة شخصية سامية مهمتها الرسمية ( حماية الشعب ضد عدوان الكبراء ) « صاحب الظلم » وهيهات ان يجد مجتمعنا العصري عبارة اجمل من هذه العبارة ، لوضع صورة تمثل فى آن واحد ؛ احترام العدالة واحترام حقوق الانسان .

« ولقد اشتغل امراء الاغالبة بالمنشآت العامة والاعمال النافعة ؛ فاكثروا من العمران والتجميل بمدينتي سوسة وتونس ، وامر واحد منهم (هو الامير احمد ابن محمد بن احمد ) بحفر وبناء الصهريج العظيم بمدينة القيروان ( فسقية الاغالبة ) حيث تجتمع المياه الواردة من جبال جلاص ، ودائرة هذا الصهريج تبلغ ١٢٨ متراً ولا يزال مستعملا الى يومنا هذا ؛ وان المسافر لتأخذ منه الروعة كل مأخذ عندما تلوح له هذه الصفحة المائية الناصعة في وسط بيداء جرداء يخيل للناظر ان لاحد لها

---

ابن الاغلب حسبما تقتضيه التقاليد السياسية ، سفارة من المدنه ترد زيارة شارلمان فاقتبل تلك السفارة بمدينة بادو بايطاليا ؛ اقتبالا لائقا فاخراً .

« يقع هذا الصهريج اليوم شمالي سور القيروان ، بعيداً عن البناء والعمران ، انما هو بلا ريب لم يكن خارج اسوار المدينة العتيقة ، وذلك ما يعطيك فكرة عن اهمية مدينة القيران التي كانت فى ذلك العصر آهلة غنية .

« والى جانب كل ذلك ، كان امراء الاغالبة قواد جنود لا تنكر مهارتهم الفائقة فى الحروب ؛ فاستطاعوا ان يوطدوا سلطانهم بصفة مستمرة على قبائل من طبعها الشغب والهرج ؛ وتغلغل بواسطتهم النفوذ العربي فى البلاد الى حد بعيد .

انما كان اولئك الامراء على الاغلب ، اذا استتب لهم الامر وسادت السكينة ارجاء المملكة ينهمكون فى الملذات والشهوات والشراب ويقومون تحت تأثير ذلك بافسى الاعمال التي يدفع اليها جبروت ليس له من حد . »

المحاولات الاولى — ان كانت البلاد التونسية مطمح انظار كل من استقرت له قدم فى جزيرة صقلية ؛ فقد كانت هذه الجزيرة كذلك مطمح انظار كل من توطد له بالبلاد الافريقية الشمالية امر .

ولقد فصلنا فى مقدمة هذا الكتاب اعمال الدولة القرطاجنية فى صقلية وما قامت به من جهود عنيفة فى سبيل فتحها وفى سبيل الاستقرار بها .

وما كادت طلائع الفتح الاسلامي تبسط اويتها الظافرة فوق اديم هذه الارض فتجعل منها معقلا منيعا للعروبة والاسلام حتى اتجهت الانظار ، انظار الفاتحين الاولين صوب صقلية ، وكانوا من وراء الجزيرة الصقلية ينظرون قارة أوربا السابحة في الهمجية التائهة في بيداء الوحشية والظلمات .

كانت غزوة الاشراف ؛ اشراف الحسب والنسب واشراف الجهاد والجلاد اول غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية . وكان القائم بكبر هذه الغزوة بطل العروبة والاسلام الخالد الذكر موسى بن نصير القرشي ، وقد اقر الله على يده الكريمة امر الاسلام بهذه الديار المغربية ، ووطد بها اركان الفتح العربي ، وتمت تلك

الاخوة الاسلامية العظمى التي لم ير العالم لها من مثيل ، اخوة العرب والبربر ، لحمتها الدين الحنيف الذى سوى بين الناس ، وما جعل من فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ، وسداها المصلحة المشتركة . .

اراد موسى فى باديء الامر ان يعبر الى القارة الاروبية ، ممتطيا صهوة الجزيرة الصقلية ، فانشأ بتونس دار صناعة جهزت له مائة سفينة وصاح في الناس حيى على الجهاد فلبى الناس داعي الجهاد في سبيل الله افواجا ولم يبق شريف ممن كان معه الا ركب البحر ، ومن ثم دعيت هذه الغزوة غزوة الاشراف ، وعقد موسى لواءها لأبنه عبد الله ؛ فنزل ارض صقلية ودحر قوى الروم بها وغنم مغانم طيبة ، انما لم يستطع البقاء بها واتمام فتحها فاكتفى بما ناله وقفل باسطوله الى البلاد الافريقية .

ولعل طول المسافة البحرية بين تونس وصقلية ، وصعوبة ارسال المدد الى الغزاة من جراء ذلك هو الذى جعل موسى يعدل عن فتح صقلية ويعزم فى التوعلى مهاجمة اروبا من ناحية اخرى تكاد تتصل فيها بالارض الافريقية ؛ وهكذا نشأت غزوة بلاد الاندلس من مجاز طنجة الذى اصبح يعرف فيما بعد والى يومنا هذا ببوغاز جبل طارق ، وهو طارق بن زياد الليثي الذى اتم الله على يده ذلك الفتح المبين .

ولي الامر بافريقيا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، عبيد الله ابن الحبحاب فرأى ان يقتفى اثر موسى بن نصير وان يدخل اروبا من صقلية بعد ان توطد فتح الاندلس ، فارسل فى اول الامر غزوة بحرية لقيت اسطولا للروم يعترضها الطريق ، فدار القتال بين الاسطولين وانهزمت مراكب الروم وولت الادبار الا ان المسلمين لقوا من جراء ذلك عنتاً واسر الروم منهم قبل انهزامهم عدداً من رجالهم ، من جملتهم العالم الكامل الشهير سيدي عبدالرحمان بن زياد الذى بقي فى

الاسر الى سنة ١٢١ (١) ثم رجعت مراكب المسلمين بما غنمته من الروم .

لكن ابن الحبحاب لم يصبر على هذه الخيبة وصمم على انفاذ السهم في صقلية فجهز من جديد حملة عتيدة وضع على رأسها القائد حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ومعه ابنه القائد الجسور عبد الله بن حبيب ، وسار الاسطول الاسلامي من دار صناعة تونس سنة ١٢٢ فنزل الارض الصقلية وقاتل من اعترضه وهزم من قاتله حتى وصل تحت جدران سرقوسة الشهيرة ونصب عليها الحصار وضيقه وضرب

---

(١) فى السنة قبلها ( ٧٣٢ م ) وقعت معركة ابواتية ، او بلاط الشهداء ؛ وبها اوقف شارل مارتيل زحف المسلمين على ضفاف نهر اللوار وقتل اميرهم البطل عبد الرحمان الغافقى ، وقد كان المسلمون دخلوا بلاد فرنسا سنة ٧٢٠ واحتلوا مدن تربون وقرقشنة ونيم ثم استولوا على افينيون سنة ٧٣٠ وبوردو سنه ٧٣٢ ووضعوا جاليات اسلامية بهاتيك الديار ؛ فبعد معركة ابواتية انسحب المسلمون الى الجنوب حيث استقروا امداً طويلا فى البلاد المواجهة لجبال البيرانات الفاصلة بين فرانسا واسبانيا .

وقد كان المسلمون يتقدمون في جنوب فرنسا الشرقي ملبين دعوة الاهالي لهم وكان من آثار المسلمين هنالك تأسيس جامعة « مونبيلي » وبعد انجلاء المسلمين جرد ملك فرنسا ( بيبان البريف ) ابن شارل مارتيل حملة انتقامية ضد اهالي جنوب فرنسا الشرقي فامعن فيهم مدة ٢٥ سنة قتلا ونهبا وتعذيباً .

وبهذه المناسبة يقول المؤرخون الغربيون ان الفاتحين العرب كانوا يتقدمون فى البلاد حسب التقارير السرية التى كانوا يتصلون بها من اليهود الذين انشأوا يومئذ جوسسة واسعة النطاق لفائدة الفاتحين المسلمين ؛ سعيا منهم فى الخروج بواسطتهم عن احكام المسيحية الجائرة القاسية التى كانت تمعن فيهم اضطهاداً وفتكا وتعذيباً .

باب المدينة ضربة رمزية بسيفه فاثرت فيه ، واذعن الروم والاغريق للصلح وبذلوا في سبيله جزية ذريعة وعزم حبيب وابنه عبدالله على البقاء بصقلية وانجاز فتحها ، وقد تيسرت لهما اسبابه. الا ان الحالة ساءت بافريقيا اذوقعت ثورة في ناحية طنجة قام بها البربر العصاة(١) فارسل ابن الحبحاب عليهم القائد خالد ابن ابي حبيب الفهري ومعه وجوه القوم واشراف قريش ، وكانه اراد بذلك ان يقمع الفتنة بوجه سلمي وبطريقة الاقناع والاذعان للحق على يد قوم لهم مكانة عالية في الدين وفي المجتمع الا ان الفتنة كانت عمياء هوجاء ؛ والتف الثوار برسل الامير وكانوا جماعة غفيرة فمثلوهم عن آخرهم وكاد امر الفتنة يستفحل ؛ فبادر عبد الله باستدعاء الجند الاسلامي من صقلية مقدماً الاهم على المهم ؛ واضطر حبيب ومن معه لاخلاء الجزيرة مرة اخرى بعدما كادوا ينجزون فتحها ، ورجعوا على مضض الى البلاد الافريقية .

رأى عبيد الله بن الحبحاب خيبة أمله المزدوجة وفشل مساعيه الجسيمة فترك الولاية ؛ ورجع الى المشرق في جمادى الاولى سنة ١٢٣ ، وكانت ولايته سنة ١١٠ ومن آثاره الجسيمة الخالدة الجامع الاعظم بتونس جامع الزيتونة العامر منبع النور والهدى بالشمال الافريقي زاده الله رفعة وسمواً . وينسب له بعض المؤرخين بناء دار الصناعة بتونس ولعله حسنها وزادها اتساعاً ونشاطاً ، لان موسى بن نصير كان قد استعمل بتونس دار الصناعة ، ومنها جهز مراكبه لغزو صقلية كما اسلفنا

ثم في ايام الوالي عبد الرحمان بن حبيب الفهري اعاد عبد الله بن حبيب غزوة الجزيرة وكان الروم قد حصنوها وانشأوا بها اسطولا لا يقصدون به الدفاع فحسب بل كانت مهمته مهاجمة مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم ؛ قال ابن الاثير : فكانوا كلما ظفروا بمركب من مراكب المسلمين اخذوه بما فيه .

---

(١) سبب هذه الثورة عسف العامل على طنجة من قبل ابن الحبحاب واسرافه في الظلم والعدوان .

اشتعلت نيران الحرب بين الاسطولين ؛ وحطم ابن حبيب الكثير من مراكب الاعداء ، ودك حصونهم ولم تكن نيته هذه المرة الاستقرار بالجزيرة ، فتركها بعد ان صالحه الروم بها على مال كثير ورجع الى افريقيا مثقلا بالغنائم .

الفتح الاغلبي وأسبابه — نشأت الدولة الاغلبية كما اسلفنا فى عزة وكرامة وتوطد لها الملك والسلطان ، ودانت لها الناس فقامت بمأثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهى فتح صقلية وموالاة الجهاد بها ونصب الوية الاسلام فوقها عالية خفاقة زاهية .

كان أهم أسباب العزم على الفتح بصفة قارة مستمرة ، هو تمهيد السبيل لفتح البلاد الاروبية ومهاجمتها من الوسط حيث اخفق هجوم المسلمين عليها من ناحية الشرق عند جدران القسطنطينية وأخفق هجومهم عليها كذلك من ناحية الغرب فى سهول مدينة ابواتية امام شارل مارتال .

أما السبب الثانى الرئيسى لهذا الفتح فهو محاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية الرومية وقد اتخذت صقلية كما أسلفنا مركزا لها ، تشن منها الغارة الفينة بعد الفينة على الارض الافريقية فتخرب الثغور وتنتهب الارزاق وتذهب بالسكان الآمنين اسرى حيث يباعون عبيدا إن لم تبادر الدولة الاسلامية بدفع الفدية عنهم .

زد على هذين السببين الرئيسيين سببا ثالثا هو رغبة الملك الاغلبي في قطع دابر الفتن الداخلية والثورات التي كانت تجتاح البلاد مثل وافدة اخطر من الطاعون وافتك من الوباء ؛ باشتغال الناس من بربر وعرب ، بامر الجهاد في سبيل الله فوق اديم ارض اجنبية ينسيهم فتنهم الداخلية ويلهيهم عن محاربة بعضهم بعضا وتخلص الملك الاغلبي بواسطة هذا الفتح من العناصر المتهيجة المثيرة في الجند العربي والتى اوصلت المملكة الاغلبية تحت قيادة الزعيم الثائر منصور بن نصر امير المحمدية الى شافة القبر ، وما امكن التغلب عليها الا بجهد جبار وتدبير حكيم .

وقد نجحت هذه الغايات السامية الى حد بعيد ، ونجح بلاط القيروان الزاهر فى عهد الاستقلال الذهبي حيث اخفقت محاولة الولاة في عهد التبعية والحكم المباشر بواسطة الخلافة .

العزم على الفتح — تكاثر عدد المسلمين الاسرى بجزيرة صقلية ، فعقد الملك زيادة الله اتفاقا مع حاكم الجزيرة من قبل الروم ، تعهد به هذا بارجاع اسرى المسلمين الى البلاد الافريقية ، ولا يبقى منهم احداً بارض الجزيرة .

وكانت الحالة يومئذ فى صقلية على اسوأ ما تكون عليه حالة بلاد يحكمها من قبل الاجانب حكام غلاظ شداد ، ديدنهم الارتشاء ودينهم مصلحة الذات ، وسيرتهم الجور والعسف وسريرتهم الحقد والحسد ونية السوء ، والشعب المسكين يئن من جراء ذلك انينا منكراً وليس عليه الا الخضوع لارادة الظالمين .

كان يتولى امر الجزيرة يومئذ من قبل امبراطور الروم في القسطنطينية عامل يدعى قسطنطين جمع الله فيه ما تفرق فى بني قومه من فساد السيرة وخلال السوء وكان على الاسطول الرومي بالجزيرة امير البحر اوفيماس Euphémias ( ويسميه مؤرخو العرب فيمي ) لم يكن احسن من زميله سيرة ولا اطهر سريرة ، وكان الخلاف مستحكما بين الرجلين بصفة فظيعة فسعى الوالي لدى الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثاني واستصدر منه امراً في القبض على امير البحر ، وكان لهذا انصار واتباع يسيرون تحت لوائه وينتفعون منه ، فثاروا على الوالي ونبذوا دعوة الامبراطور واعلنوا فى الجزيرة استقلالهم ، وانتصب اوفيمياس حاكما بامره هنالك

لكن الدهر لا يصفو للظالمين ؛ فان اوفيمياس لم يمكث في الملك طويلا ، حتى ثار عليه احد قواده ، بلاطة ، وهزمه في معارك عديدة واعان رجوع البلاد لطاعة الامبراطور .

ضاقت الاسباب باوفيماس فقدم بجماعة من انصاره الى مدينة القيروان

مستنجداً بلاطها ضد خصمه .

كان مجلس شورى الملك زيادة الله يتفاوض يومئذ فى مسألة الاسرى المسلمين بصقلية ، وقد علم رجال القيروان انه لم يزل بين ايدي الروم هنالك جماعة من المسلمين وان العقد الذى عقده الملك مع والي الجزيرة لم ينفذ ، وكان الجدال يومئذ محتدماً حول ذلك ؛ وهل يجوز نقض العهد معهم والعودة الى حربهم ؟ فقال قاضي الجماعة اسد بن الفرات : علينا ان نستخبر رسلهم ؛ يعنى ( جماعة اوفيماس ) فاننا بواسطة الرسل قد عاقدناهم ، وكذلك بواسطه الرسل نقيم عليهم الحجة ونجعلهم ناكثين .

اوتي بالرسل يومئذ فسئلوا عن الامر ، واكدوا انه لم يزل حقا بالجزيرة الصقلية خلافا للعهد ، جماعة كبيرة من المسلمين فى حالة رق واستعباد .

اذاك قرر المجلس ان العقد قد نكث من طرف الاعداء ، وان الحرب واجبة لرفع هذه المظلمة ونادى زيادة الله بالجهاد فى سبيل الله ؛ فابى المسلمون النداء واجتمع الاسطول الاسلامي بمدينة سوسة ، مرسى القيروان ؛ وكان يجمع ماية مركب تحمل كل مركب منها نحواً من ماية وعشرة من المقاتلين مع الزاد والعتاد والخيل ، فكان الجيش الفاتح مؤلفا من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس وامر عليهم قاضى الجماعة اسد بن الفرات .

اسد بن الفرات — وانه لمن اكبر الكبراء واعظم العظماء فى تاريخ الشمال الافريقي ، لا تدانى منزلته العالية في العلم ، الا همته الشماء وعلو كعبه فى الجهاد ، بين ميادين السيف والقلم .

وانه لمن واجبنا المقدس ان نسطر صفحة حياته النقية الطافحة بجلائل الاعمال بصفة موجزة (١) حتى نتخلص الى ذكر قيادته الجند واعماله في صقلية .

(١) راجع عن ترجمته باسهاب ؛ مقالا ممتعا للاستاذ العلامة الشيخ سيدي احمد

اعجمي الاصل ، ولد بمدينة من ارض خراسان سنة ١٤٢ ، وقدم مع والده وسنه لا يجاوز الاربعة اعوام صحبة الجند الاسلامي القادم مع الوالي محمد بن الاشعث لتمهيد الامر بافريقيا .

تلقى فى مدينة القيروان مباديء علومه مدة خمسة سنوات وارتحل فى العاشرة من عمره الى مدينة تونس فانقطع فيها للعلم نحواً من التسعة اعوام تعلم فيها القرآن وعلومه ، وروى فيها موطأ الامام مالك عن علامة افريقيا يومئذ وبحرها الطامي سيدى علي بن زياد (١)

وكان اسد رحمه الله يقول مفاخراً ومداعباً اقرانه : انا اسد والاسد خير الوحوش ، وابي الفرات والفرات خير الماء ؛ وجدى سنان والسنان خير السلاح .

ولم يكفه ما روى به غلته من العلم في مدينة تونس ؛ فامتطى صهوة العزيمة والجلد ، وشد رحاله الى المشرق الذى كان يزهو ويزدهر يومئذ بما فيه من مصابيح العلم وائمة الهدى .

ام باديء ذى بدء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنالك سمع عن مالك ابن أنس رضي الله عنه الموطأ وتعمق فيه بعدما استوعبه اول مرة عن ابن زياد ؛ ثم غادر المدينة مزوداً بعلم مالك الغزير ودعائه الصالح ووصيته يوم الوداع: اوصيك بتقوى الله تعالى ؛ والقرآن والنصيحة لهذه الامة » وام العراق فلقى جماعة من

---

المهدى الفيفر نشرته مجلة الثريا التونسية في العددين السابع والثامن من سنتها الاولى

(١) روى الموطأ عن الامام مالك رضي الله عنه بالمدينة ؛ واخذه عنه الامام سحنون صاحب المدونة ؛ عرضت عليه الدولة مراراً تولى القضاء ، فرفض وابى تورعاً منه ، وحبا للانقطاع للعلم ، حتى توفاه الله سنة ١٨٩ ، ودفن بتونس حيث لا يزال ضريحه الضخم تجاه ادارة المحافظة يزوره الناس احياء لذكراه واعترافا بجلائل اعماله .

اصحاب ابي حنيفة النعمان ؛ اخص بالذكر منهم الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فاخذ عنهما الشيء الكثير من علم ابي حنيفة وآرائه وفتاويه واخذ عنه ابو يوسف موطأ مالك وآراءه . ثم انتقل الى مصر وفيها جماعة كبرى من اصحاب مالك والناسجين على منواله ، فصحب منهم الامام عبد الرحمان بن القاسم صحبة طويلة وامعن فى سؤاله وعرض المسائل المختلفة عليه ، حتى انقطع اسد فى السؤال ، اذ لم يبق له شيء يسأل عنه ، ودون عندئذ كتابه الشهير « الاسدية »

وبعد عشرة اعوام مضت فى جهاد عنيف واجهاد نفسي عز نظيره في سبيل العلم والمعرفة رجع الى وطنه الافريقي حاملا فى صدره علماً غزيراً ، وفي وطابه كتاباً عزيزا هو الاسدية ، وتصدى للعلم والنفع ، فاشتهر امره وذاع صيته .

وكان الامام سحنون يومئذ بالمشرق ينهل من معين ابن القاسم العذب وقد صحبه واطال صحبته وألف كتابه الاشهر « المدونة » ثم رجع به إلى القيروان وانتصب للاقراء والنفع والتدريس ؛ ولم تكن للمدونة على وفاق تام مع الاسدية فهنالك مسائل كانت محل خلاف واستشير الامام ابن القاسم فى الامر فرجح كفة المدونة على كفة الاسدية وأمر أسدا بان يصحح كتابه على المدونة فترك أسد رحمه الله اسديته وفقه مالك ؛ وأقبل على مذهب أبي حنيفة النعمان يشرحه للناس ويعلمه الامة .

ثم ولي قضاء القيروان سنة ٢٠٤ مشتركا فى ذلك مع القاضى أبي محرز الكنانى ؛ وكان بينهما شنآن كبير وخلاف جسيم .

وعندما وقع الخوض فى مسألة صقلية ومن بها من أسرى المسلمين كان من رأي القاضي ابي محرز الكناني التأنى الى ان يتأكد الخبر ؛ ولو كان عائشا فى عصرنا الحديث لطلب « تشكيل لجنة بحث » اما اسد فكان رأيه الاسد ، اذ قال علينا بسؤال الرسل ، فاننا بواسطة الرسل صالحناهم ، وبواسطة الرسل نجعلهم ناكثين

ورجح هذا الرأي كما رأيت ، ونادى منادي الجهاد ، واجتمع الاسطول في سوسة .

عندئذ طلب القاضي اسد بن الفرات من اميره زيادة الله ، الاذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامي حتى ينال شرف الجهاد ، او شرف الاستشهاد ، فلبى زيادة الله طلب القاضي الذى كان يومئذ فى العقد السابع من عمره ، واولاه امارة الجيش الفاتح ؛ فقال اسد : واهاً يا مولاي ! اتعزلني عن القضاء لكي توليني الامارة ؟ فقال زيادة الله كلا ؛ بل لك امارة الجيش مع القضاء .

وامر زيادة الله ان يخرج الجند الاسلامى فى موكب حافل ومهرجان مشهود فخرج لوداع المجاهدين كبار الامة وعيون القوم من العرب والبربر والاندلسيين ، والسادة الاشراف ؛ قال الشيخ ابو بكر بن محمد المالكي في كتابه «رياض النفوس» فلما رأى ( اسد بن الفرات ) جمع الناس بين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ، وقد صهلت الخيول وضربت الطبول ، ونشرت البنود قال : لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ما ولي لي اب ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

المعارك الاولى — اقلع الاسطول الاغلبي الاسلامى من مدينة سوسة ؛ يوم الاحد ١٤ ربيع الانور سنة ٢١٢ ( ١١ جوان ٨٢٤ ) ووصل سواحل صقلية عند مدينة مازرة ، يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الانور ؛ قاطعا فى ثلاثة ايام ، ثلاثمائة كيلو متراً تفصل بين سوسة ومازرة .

نزل المسلمون مدينة مازرة ، ولم يجدوا بها من يدافع عنها لاختلال امور الروم وزهد اهل البلاد في الدفاع عنها لفائدة الغاصبين ، فاتم المسلمون تفريغ الاسطول

وانزلوا الى الارض جميع ما اتوا به من معدات الفتح والكفاح .

عندئذ قدم القائد بلاطة بجموع كثيفة من الروم ، تبلغ المائة الف مقاتل ، اي عشرة اضعاف الجند الاسلامي ؛ اما امير البحر اوفيماس الخائن فقد تركه المسلمون وشأنه ولم يستعملوا جماعته وانصاره .

خرج المسلمون للقاء بلاطة ، وكان يعتزم الرمي بالمهاجمين الى البحر ، والتقى الجمعان على مقربة من مازرة . قال ابن ابي الفضل وكان حاضر المعركة « ورايت اسد بن الفرات وبيده اللواء وهو يزمزم ؛ فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة يس ؛ فلما فرغ منها قال للناس : هؤلاء عجم الساحل ... هؤلاء عبيدكم ... لا تهابوهم ؛ وحمل باللواء وحمل الناس معه ؛ فهزم الله جل وعلا بلاطة واصحابه ، فلما انصرف اسد رأيت والله لدم قد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه » .

ومعنى قول أسد : هؤلاء عجم الساحل ، اي هؤلاء الذين هربوا امامكم من السواحل الافريقية .

اثر هذا النصر العظيم ، فرت فلول الجيش الرومى نحو الجهة الشرقية معتصمة بمدينة سرقوسة ؛ ورأى اسد ان يستثمر على الفور انتصاره الكبير ، فسار بجيشه يقتفي اثر المنهزمين ، ففتح كامل الجنوب الصقلى فى مدة وجيزة حتى وقف تحت اسوار سرقوسة قاطعا مسافة مائتي كيلو متر الفاصلة بين مركز النزول مازرة والمدينة المحاصرة في وقت وجيز .

وكان امير البحر اوفيماس قد ندم على فعلته وخيانته ، اذ رأى ان المسلمين يفتحون الجزيرة لحساب الاسلام لا لحساب رومى مهما كان شانه فراسل أهل سرقوسه يستحثهم على الصبر والثبات ريثما يقدم لنجدتهم ، فخرج جماعة من البطارقة والرهبان يسالون الامان لاهل المدينة ويطاولون فى المذاكرة وكان ذلك منهم

خديعة حربية تمكنوا بواسطتها من كسب الوقت ، وزيادة تحصين المركز ، وإخفاء ما به من كنوز ونفائس .

أراد المسلمون أن يقتحموا المدينة فاخفقوا وأراد أهل المدينة أن يبعدوا المسلمين عن أسوارها فاخفقوا كذلك وأصبحت الحرب حرب مراكز لا حرب حركة .

وقع المسلمون فى مخمصة عند ذلك وأصاب الجندجوع كبير حتى أكلوا الخيول فخاطبوا القايد ابن قادم فى الامر وسالوه التوسط لهم عند أسد ليامرهم بالرحيل إلى افريقيا؛ قال ابن القادم لأسد :ارجع بنا الى افريقيا فان حياة مسلم واحد أحب إلينا من جميع المشركين، فقال أسد ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين وفي المسلمين خير كثير ؛ هنالك اخذ دعاة الهزيمة يعملون أعمالهم وينشرون دعايتهم المنكرة وبدرت من ابن القادم الذي تزعمهم كلمة سيئة ، فقال اسد : على اقل من هذا قتل عثمان بن عفان ؛ ثم تناوله وضربه ثلاثة او اربعة اسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ونصر فكرة المقاومة والثبات والصبر، فتم له ما اراد ؛ وعادت العزيمة القوية الى الانفس التي لعبت بها حينا ما دعوة النكوص على الاعقاب

واذ كان المسلمون قد احتلوا كامل الجنوب الصقلى ؛ فقد سهلوا على انفسهم امر تموين الجندووصول النجدات اليه من الارض الافريقية ، ووصلت النجدات والاقوات والمؤون للمسلمين ؛ ووصلت للروم فى سرقوسة مثل ذلك من بقية الحاميات الرومية ، واستمرت الحرب سجالا حول سرقوسة ، وقد حفر المسلمون حولها خندقا عظيماً يمنع خروج حاميتها المهاجمة .

وكان اسد رحمه الله ورضي عنه يباشر امر الحصار بنفسه ويضيق على المدينة لكن ذلك الجهد الحربى الذى بذله منذ نزل مازرة نال من جسمه البالي فاصابه من جراء ذلك مرض اودى بحياته الجليلة ، ولبى داعي ربه فى ربيع الثانى سنة ٢١٣ اي بعد جهاد متواصل عنيف دام ١٣ شهراً ودفن رحمه الله بمقر استشهاده تحت

اسوار سرقوسة ، ويقول بعض المؤرخين انه دفن بمدينة قصريانة، وذلك غلط لأن تلك المدينة لم تكن قد فتحت بعد ؛ وكذلك يقول بعضهم غلطا انه دفن فى بالرمة التي لم تفتح الا عدة سنوات بعد ذلك .

## محمد بن ابي الجواري

اجتمع المسلمون بعد انتقال اسد بن الفرات الى الرفيق الاعلى ؛ وولوا عليهم محمد بن ابي الجواري . كانت النفوس قد ضعفت والعزائم وهنت ، فاستقر رأي الامير محمد بن ابي الجواري على اخلاء الجزيرة ، والرجوع بالمسلمين الى افريقيا .

غلطة الروم ـ توطد الفتح — ركب المسلمون عندئذ مراكبهم منسحبين ؛ واقلعوا ، وما كادوا يتوسطون عرض البحر حتى لقيهم اسطول الروم القادم من القسطنطينية نجدة لاهل سرقوسة ؛ فسد على المسلمين طريق الرجوع الى افريقيا ولم يترك لهم الا احدى الطريقتين : اما قبول المعركة مع الاسطول الرومي ، وهو اوفر عدداً واقوى عدة ، او الرجوع لصقلية ، والثبات بها والصبر على شدة الحرب الى ان ياتي الله بامره .

عزموا ، وهم على متن البحر على مواصلة الجهاد والرجوع الى البر ، فرجعوا مستبسلين ، عازمين على الفوز او الاستشهاد ، ولكي يقطعوا كل امل لهم بالنكوص على الاعقاب والرجوع نحو افريقيا ، قاموا بعملهم الحازم الحاسم ، الا وهو احراق اسطولهم عن آخره مقتدين في ذلك بما فعله من قبل طارق بن زياد عند فتح الاندلس ، حينما احرق المراكب وقال : ايها الناس البحر وراءكم والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصبر او النصر ؛ وبهذا الحادث الرمزي ، توطد امر المسلمين في الجزيرة وعزموا على انجاز الفتح الى النهاية .

ابن فرغلوش الاندلسي — وكيف الصبر على الجوع وعلى قلة المدد وعلى ضعف العدد ، امام جموع الروم الغفيرة واقواتها الوفيرة ؟ رأوا ان لا ملجأ من

الله يومئذ الا اليه فصبروا وانتظروا ؛ وكان نصر الله قريباً .

فى تلك الاثناء والازمة مستحكمة الحلقات ، ارسى على السواحل الصقلية الجنوبية اسطول قرصان المجاهدين المسلمين بالاندلس ، يقوده اصبغ بن وكيل المشتهر باسم « ابن فرغلوش » وكان الاسطول مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة سائرة في سبيل الغزو والمغامرة .

تم الاتفاق بين مسلمي الجزيرة وقرصان الاندلس على ان ينزل الاندلسيون الجزيرة لنصرة جندها ، وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها وعلى ان تكون الامارة فيها عند انجاز ذلك لابن فرغلوش .

نزل الاندلسيون البر واشتد بهم ساعد أهل افريقيا وسار المسلمون أقوياء العزائم فى طريق الفتح والنصر ، فاحتلوا مدينة مينا بعد حصار ثلاثة أيام ؛ ثم ساروا نحو جرجنت ففتحوها قسرا وساروا بعدئذ نحو معقل «قصر يانة» الذى كان أكبر صياصى الروم بالبلاد .

كان امير البحر اوفيماس الخائن لا يزال يسير مع المسلمين اينما ساروا ؛ وكان لا يزال يطمع فى تولى الامر بعد أن يمهد له المسلمون السبيل ؛ فعندما وقف المسلمون تجاه قصر يانة ، وكان أهلها أشداء متفانين فى الدفاع ، أظهروا الاستسلام والخضوع ، وأبدوا رغبتهم فى تولية اوفيماس أمرهم ، وما كان الامر منهم الا مكيدة فتمكنوا من الخائن ودقوا عنقه ، وتحصنوا فى مدينتهم أثر ذلك فلم تستطع جموع المسلمين اخضاعها .

الوباء — فى سنة ٢١٦ ( ٨٢٨ ) أصاب المسلمين وباء شديد فتك بهم فتكا ذريعاً ، وكان القائد المجاهد بن فرغلوش من جملة من استشهد بذلك ومات فى تلك السنة نفسها الوالي محمد بن ابى الجواري ، واضطرب امر المسلمين فتولى امرهم مؤقتا عثمان بن فهرب الى ان جاء من القيروان ابو قهر محمد بن عبد الله التميمي

سنة ٢١٧ (١) فنفر ابن فهرب عنها ولم تطل مدة ولايته ، ولم يستقم له امر ، ورجع اسطول الاندلس بمن بقى حيا من رجاله الى اسبانيا .

## زهير بن عوف

ارسل زيادة الله الاغلبي ، زهير بن عوف عاملا على الجزيرة ، على ان يستمر فيها على الجهاد ويتم فتح البلاد ؛ وارسل معه جنداً عتيداً يبلغ عدده ٣٠ الفا ؛ فاشتد ساعد المسلمين هنالك ، واندفعوا يوالون الفتح ويسيرون من نصر الى نصر .

فتح بالرمة — ولقد كان ملاك عمل ابن عوف رحمه الله ورضى عنه فتح بالرمة عاصمة الجزيرة ودرتها اللامعة ؛ فلقد سار اليها على رأس الجند الاسلامى بعد ان توطد الفتح في الناحية الجنوبية كلها ؛ وكان الروم ومن الف حولهم من انصار المسيحية قد تحصنوا في العاصمة واستعدوا لتلقى الصدمة الرهيبة واعدوا لها ما استطاعوا من قوة وميرة ، ومن عزيمة وجلد .

وقف المسلمون تحت الاسوار المنيعة ، وارسل ابن عوف الانذار الشرعي لرجال الحامية فرفضوا الانذار وتلاقت هنالك تحت جدران العاصمة الصقلية عزيمتان قدتا من زبر الحديد ، عزيمة المسلمين التى استقرت على وجوب الفتح

---

(١) فى السنة الموالية ؛ ٢١٨ هجرية ، توفى امير المؤمنين الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد ، وقد كان عصره ازهر عصور المسلمين من حيث العلم والثقافة وقد امر باحضار كتب العلم والحكمة والهندسة وغيرها من بلاد الاغريق وكلف بتعريبها جماعة من مهرة التراجمة ، وقد كان كثير التشيع حتى انه اوصى بولاية العهد لعلي الرضا بن موسى الكاظم ؛ وفي ايامه تجسمت فتنة القول بخلق القرآن واشتدت محنتها ؛ وقد كان مغرماً بالتجسس والاطلاع على سائر الاحوال ، فعين ١٧٠٠ عجوز يجسن خلال الديار ويطلعنه على مختلف الاسرار .

ودك الأسوار ، وتحطيم كل مقاومة تقف في سبيل انجاز المهمة الكبرى ، وعزيمة الروم التي توطدت على وجوب الدفاع عن العاصمة ، وفى الدفاع عنها دفاع عن كيان الجزيرة باسره ؛ فاما الفوز ودحر المسلمين واما الانهيار مع انقاض المدينة .

نصب ابن عوف الحصار على بالرمة وضيق عليها الخناق من سائر اطرافها ومهما ازداد شدة فى تضييق الحصار الا وازداد المدافعون تصلبا فى المقاومة واستماتة في الدفاع ؛ وقد علم كل من الفريقين ان المعركة حاسمة وان نتيجتها سنكون اما فوز الاسلام بالجزيرة ، وتقلص ظل المسيحية بها ، واما اندحار المسلمين ورجوعهم من حيث اتوا خائبين .

لكن الضائقة اشتدت بالمدافعين الى درجة لم يبق لهم معها احتمال الصبر ، وفقدوا كل امل لهم في النصر ، ولم يبق امامهم الا احد الطريقين : طريق الموت والاستشهاد كابطال قرطاجنة الذين سقطوا فى ميدان الشرف مجندلين تحت انقاض مدينتهم بين السنة اللهيب ، او طريق الاستسلام والانسحاب . ولقد كان هذا هو الذى استقر عليه الوالي الرومي ومن بقي معه من رجال المسيحية ، فطلب من ابن عوف الامان على ان يغادر الجزيرة بحراً بماله واهله ، ومن اراد اتباعه من وجوه قومه ، فامنه الامير المسلم واجابه لطلبه تقديراً منه للبطولة التى اظهرها اولئك القوم فى الدفاع ؛ وابحر الروم تاركين المدينة مفتوحة امام المسلمين فدخلوها فى رجب سنة ٢٢٠ ( ٨٣٢ ) ، ولم يجدوا بها حسب رواية ابن الاثير الا ثلاثة آلاف من السكان ، وقد كانوا قبل الحصار ٧٠ الفاً .

اتخذ المسلمون يومئذ مدينة بالرمة عاصمة لملكهم ، كما كانت عاصمة الذين سبقوهم ؛ وكما اصبحت من بعد عاصمة الذين خلفوهم ؛ واندفعوا في ميدان الاصلاح والعمران والترميم ، يقيمون انقاضها ويشيدون جدرانها ويوسعون دائرتها ، فما عتمت غير قليل حتى اصبحت تختال في ثوب قشيب من المدنية والعمران ؛

وامتلات قصوراً ومساجد ودواوين وحمامات واسواقا وحدائق و بساتين وصارت جنة يانعة تمثل انوار الشرق الاسلامي ومدنيته اللامعة الخلابة وعلومه وفنونه ومنشآته ، تجاه ظلمات القرون الوسطى فى العالم الغربي .

استمرار الفتح ـ احتلال مسينا — اثناء حصار بالرمة ، نال المسلمون نصراً عظيما وطد قدمهم في ناحية الشمال الصقلي ؛ وذلك باحتلال مدينة مسينا ، سنة ٢١٩ ( ٨٣١ ) فانحصر الروم والمسيحيون فى الناحية الشرقية من صقلية حوالي مدينة قطانيا ، واصبحوا لا يحتلون من الجزيرة الا مثلثا يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربى من مسينا الى قصريانة ، ثم يرجع من قصريانة نحو الجنوب الشرقي الى مدينة نوتو ؛ وعلى هذا الخط الحربى الذى كان يتضاءل شيئا فشيئا كانت تتوالى اعمال الهجوم من ناحية المسلمين ، وكانت تتوالى اساليب الدفاع من ناحية المسيحيين

هاجم المسلمون الخط من وسطه مرتين ، خلال سنتي ٢١٩ و ٢٢٠ محاولين احتلال معقل قصريانة المنيع ؛ انما هم لم يستطيعوا ان ينالوا منه منالا ، فاكتفوا بغنائم غنموها ورجعوا الى معسكرهم .

كذلك حاولوا تمزيق الخط من اسفله ، فهاجموا مدينة سرقوسة بشدة ، لكنها تصلبت فى الدفاع ، واشتدت مقاومتها بصفة أجبرت المسلمين على الرجوع إلى مراكزهم لكن هذه الخيبة انقلبت نصراً مبينا ؛ ذلك أن جند الروم رأى أن يقطع عن المسلمين خط الرجعة ويصدهم عن الرجوع إلى مراكزهم فاعترض لهم فى الطريق وانقلبت محاولته تلك وبالا عليه ؛ اذ ان المسلمين ركنوا إلى غابة كثيفة هناك حجبتهم عن انظار المتتبعين ، وكمنوا هنالك الى حين ، ثم انقضوا فجأة على الجند الرومي فمزقوه شر ممزق ، وقتلوا البطريق قائده وغنموا زاده وعتاده ثم عادوا نحو سرقوسة فنصبوا عليها الحصار وضيقوه .

كذلك سار القائد محمد بن عبدالله على راس كتيبة فناجز مدينة طبرمين

القتال ولم يدخلها مكتفيا بالاستطلاع وبما ناله من غنائم واسلاب وأخيراً احتل مدينة كوزو Gozzo سنة ٢٢١ .

أبن أبي محرز القاضي — فى هذه السنة سنة ٢٢١ مات بمدينة القيروان عالم من جملة العلماء وعلم من اعلام المسلمين ، هو ابن ابى محرز قاضي صقلية ؛ وقد ضربت بنزاهته وعدله وبتقواه وورعه الامثال ، من ذلك انه عندما بلغته الوفاة ، اوصى اخاه عمر ابن ابي محرز ان يكتم خبر موته خوفاً ان يكفنه ويدفنه زيادة الله الاغلبي ، وينفق ذلك عليه من بيت مال المسلمين ، فيلقي الله وعليه من مال المسلمين شيء ، وهكذا كان . فلما بلغ نبأ ذلك الامير ، ارسل بفتاه خلف ، ومعه مسك وطيب واكفان فوصل ساعة كان النعش خارجا نحو المقبرة ؛ فنثر خلف المسك على جدث القاضي ، ورجع بالاكفان ؛ وحضر الدفن الامير زيادة الله وعزى اخاه واهل العلم فيه ، وقال لمن حوله « لو اراد الله بكم يا اهل القيروان خيراً لما اخرج ابن ابي محرز من بين اظهركم .

وفى نفس هذه السنة ٢٢١ (١) توفى زهير بن عوف امير صقلية وقد سجل اسمه على صفحات المجد بجلائل اعماله .

---

(١) فى هذه السنة اشتدت بالعراق محنة القول بخلق القرآن على يد الخليفة المعتصم بالله ، وكان قد تشبه بملوك الاعاجم ، وادخل الاتراك الدواوين واعتمد عليهم فى ادارة الدولة ؛ وبلغ غلمانه من الترك ١٨ الفاً ، البسهم اطواق الذهب والديباج ، وبنى مدينة « سر من راى » وانتقل اليها ، وقد حارب الروم وانخن فيهم ، وكان من ضحايا القول بخلق القرآن ، الامام احمد بن حنبل ؛ الذى امتنع من الاعتراف بذلك المنكر ؛ فعقد له مجلس للمناظرة دام ثلاثة ايام ؛ وضرب ضربا مبرحاً الى ان اغمي عليه وهو صائم ، ومات رضي الله عنه شهيداً من جراء ذلك ثم استعمل المعتصم بالله خمسين الفا من الاتراك التتار لاجل المحافظة على الثغور ،

# ابو الاغلب ابراهيم بن عبد الله بن الاغلب

ولي امارة صقلية عند موت زهير بن عوف ، وامر المسلمين في نمو وسلطانهم في تمكن وحول وقوة ؛ وكان الروم لا يزالون متحصنين فى الخط الدفاعى الذى اسلفنا ذكره ؛ فكانت همة الوالي الجديد متوجهة نحو ذلك المثلث يريد نسفه ، حتى يصفو امر الجزيرة للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع .

الحرب البحرية — رأى ابن الاغلب ان الروم يعتمدون على البحر اكبر الاعتماد ، والنجدات ترد اليهم تباعا على متن الامواج فايقن ان القضاء النهائي على المقاومة الرومية لا يقع الا بعد القضاء على مراكز تموينهم ، وقهر الاسطول الرومي والسفن التي تعمل على انجادهم .

لذلك كانت اعمال ابي الاغلب الاولى منحصرة ضمن المنطقة البحرية ، فسير سفائنه تجوب عرض البحار المحيطة بالجزيرة ؛ ولقي هنالك اسرابا من سفن الروم فنازلها وحطم الكثير منها واستولى على عدد كثير ضمه الى عمارته ؛ واصبح للاسطول الاسلامي الصقلي اثر هذه الوقائع سمعة ادخلت الرعب فى قلوب الاعداء

ولقد اغتنم ابو الاغلب فرصة تغلبه البحرى فانزل كتائب من الجند الاسلامي تحتل اغلب الجزائر الواقعة شمال صقلية وغربها ؛ وقد كانت مكامن للروم ومراكز لتموينهم .

وقائع قصريانة — في سنة ٢٢٢ ، فتح القائد الفضل بن يعقوب حصن مندار Tinders لكن المسلمين بالجزيرة ما كان ليصفو لهم الجو ، وعلى يمينهم معقل كمقل قصريانة ، يقض مضاجعهم ويهدد امنهم بصفة مستمرة ؛ فكان الجهود تبذل من

---

فتفقدت بذلك وحدتها ، ودخل عليها العامل الذى ادى فيما بعد لهلاكها ، اذ استبد بالحكم فيها الاتراك ولم يتركوا للخليفة الا الاسم .

جانب المسلمين باستمرار لمحاولة احتلال قصريانة كلفهم ذلك ما كلفهم من جزيل التضحيات .

ولقد كان الروم وكانت الجموع المسيحية تعرف اهمية قصريانة ، وتدرك قيمتها الحربية ؛ وهي اشبه ما يكون بخنجر ممتد نحو قلب المراكز الاسلامية ، وتدرك فوق ذلك قيمتها الادبية ؛ فهي تمثل رمز المقاومة المسيحية بهاتيك الديار .

هاجم المسلمون مراراً قصريانة ؛ واخفقوا تحت جدرانها مرارا ؛ وما صدهم الاخفاق عن موالات الهجوم ، ولم تثن عزيمة المسلمين هنالك عزيمة الروم ؛ فمهما اشتد اولئك فى الهجوم العنيف اشتد هؤلاء فى المقاومة الباسلة ، والتقت هنالك وجها الى وجه بطولة المسلمين وبطولة الروم ؛ وسجل الفريقان على ميدان الفروسية والشهامة صحائف فخر لا تبليها الايام .

ولقد احتل المسلمون قصريانة احتلالا موقتا له قصة طريفة سنة ٢٢٣ ذلك أن ثلة من الجند الاسلامي كانت مرابطة تجاه المدينة لاهي تستطيع احتلالها ولا الروم يستطيعون ابعادها فغى ليلة من الليالي كان أحد المسلمين يغامر منفرداً تحت جدران المدينة يطوف حولها وإذا به يجد ثغرة وليس عليها حرس من الروم فانطلق يعدو الى حيث معسكر المسلمين واخبرهم بالامر فتناولوا سلاحهم وانطلقوا خلفه الى حيث تلك الثغرة فاجتازوا منها الى المدينة والروم فى غفلة وما شعر هؤلاء الا واصوات التكبير والتهليل قد تصاعدت الى عنان السماء ، وقد ملك المسلمون المدينة فانسحب الروم الى بعض الابراج وتحصنوا بها ، وامن المسلمون سكان المدينة على انفسهم واموالهم ؛ ثم انسحبوا منها بعد حين ، نظرا لقلة عددهم ولكثرة الروم المحيطين بها ، ورجعوا الى مراكزهم الاولى وعاد الروم للتحصن بها من جديد

المسلمون فى ايطاليا الجنوبية — وفى سنة ٢٢٣ (١) حيث كانت تجرى هذه

(١) فى منتصف هذه السنة توفى بالقيروان ملكها العظيم زيادة الله بن الاغلب

الوقائع في داخل الأرض الصقلية ؛ كانت انظار المسلمين تتجه الى ابعد من ذلك ، كانت تتجه صوب البلاد الطليانية محاولة فتحها ومهاجمة القارة الاروبية من الوسط فان ابا الاغلب ارسل باسطوله العتيد نحو بلاد قلورية تحمل جنداً مدرباً ، فهزم الاسطول ما لقيه في طريقه من مراكب المسيحيين ونزل الجند الاسلامى فى جنوب ايطاليا حيث سجل صفحة من اغرب صفحات التاريخ الاسلامي بالارض الاروبية

لقد كان المسلمون ينتهزون الفرص للوثوب على الارض الطليانية بصفة قوية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ؛ ونشر انوار المدنية الاسلامية على انقاض ظلمات القرون الوسطى .

وفى هاتيك الاثناء كانت مملكة نابولي الطليانية تحارب امارة بينفان Bénévent جارتها ؛ وكانت هذه الامارة قد تغلبت على جند نابولي ، فارسل ملكها رسلا الى بالرمة يستنجدون ابا الاغلب ضد خصمهم ، ورأى هذا ان الفرصة سنحت للتدخل فى سياسة البلاد الطليانية فارسل فرقة من الجند الاسلامي تشاركت مع جند نابولي في محاربة امارة بينفان ؛ حيث غلبت هذه الامارة ؛ ورضخت لشروط الصلح ؛ واصبح المسلمون يومئذ حلفاء لمملكة نابولي ، ورأى رجال هذه الدولة ما للمسلمين من قيمة فى ميدان العلم والعمران علاوة عما كان لهم من قيمة فى ميدان الحرب والطعان ؛ فانفتحت فى وجوه الرواد المسلمين ابواب المملكة وكانوا يحملون معهم رايات المدنية والعلوم والفنون ؛ وكان ذلك هو حجرة الاساس في تكوين عصر النهضة باروبا (La Renaissance)

ولقد كان المسلمون المغاربة قد نزلوا ارض قلورية بالجنوب الطلياني سنة ٢١٩ ( ٨٣٠ ) واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مركزاً لأعمالهم ،

---

الكبير بعدما وطد سلطان الدولة على اسس متينة بافريقيا وصقلية ونظم دولته فاحسن تنظيمها ، وكانت ايامه ازهر ايام الدولة الاغلبية .

ثم ارسلوا غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو في شمال ايطاليا ، وانتظم يومئذ امرهم بالبلاد واتخذوا مدينة باري Bari عاصمة لأمارتهم التابعة راساً لبلاط القيروان ، وجهزوا اسرابا براً وبحرا لفتح مدينة رومة فتمكنوا من ارباضها وبعض قلاعها ، لكنهم تخلوا عنها في آخر الامر لخلاف شجر بينهم وانسحبوا الى امارتهم .

وفي سنة ٢٣٩ ، اثر هذا الاخفاق اعلن مفرج ابن سليمان عامل الاغالبة ، استقلاله بالجنوب الطلياني فى مدينة باري وحارب الامارات الطليانية المحيطة بامارته فدحرها ووسع املاكه واتخذ من مملكة نابولي حليفا وفيا ، وكانت مراكبه قوية جريئة دحرت اسطول الروم القادم لاسترجاع البلاد ، واضطرته الرجوع على اعقابه ثم احتل مدينة اوترنت Otrente واحتل مدينة Carigliari ، ووضع بهما جاليات اسلامية ؛ ونصب الحصار على مدينة قابو Capoue انما لم يتمكن من احتلالها وهكذا دانت لأمارة مفرج بن سليمان حول مدينة باري كامل البلاد الطليانية الجنوبية .

فتح مسينا — كان الروم قد استرجعوا مسينا من يد المسلمين ، وكانت هذه المدينة همزة الوصل بين صقلية وايطاليا ، فتمكن الروم من البقاء بها مسناه انقطاع الصلة بين شطري الواجهة الاسلامية ، لذلك سار القائد الفضل بن جعفر على رأس جند عتيد ، فحاصر مسينا وثبتت امامه ثباتا عجيباً ؛ وكان يقاتلها من جهة البحر ، فارسل فرقة من جنده هاجمتها على غفلة من ورائها من جهة الجبال ، فتمكنت منها واحتلت معاقلها فاستسلم مقاتلوها وطلبوا الامان فامنوا .

فتح لسى — سار الفضل بن جعفر اثر ذلك قاصداً مدينة لسى ، وكانت حصينة متينة التحصين انما كانت حاميتها قليلة العدد ؛ فعندما رأى اهلها قدوم الجند الاسلامي استصرخوا بطريق قصريانة طالبين منه النجدة فراسلهم يقول انه منجدهم بمدد وانهم متى رأوا ناراً اوقدت على الجبل المشرف على المدينة فعليهم ان يفتحوا بابها فى وجه النجدة القادمة لنصرتهم .

هل وقع الرسول والرسالة فى يد القائد الفضل بن جعفر ، ام كانت له عيون اخبرته بذلك النبأ ؟ الامر المحقق هو انه علم جلية الخبر ، فاعد جنده ليلا واوقد على الجبل ناراً ، ففتح اهل المعقل ابواب حصنهم وخرجوا لملاقات النجدة فما راعهم الا والجند الاسلامي يهاجمهم من كل جهة ويقتحم عليهم الابواب ويستولي على المدينة وعلى حصونها ؛ وكان ذلك سنة ٢٣٢ (١)

واستمر الامير المعظم ابو الاغلب ابراهيم يدير امارته بهمة عالية ويوالي اعماله بين قطبي السيف والقلم الى ان توفاه الله سنة ٢٣٦ ؛ وقد كان شهما كريما جواداً وهو ابن اخي الملك زيادة الله ؛ وقد قص علينا ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام قصة ترينا مثالا من جوده وشهامته ، قال :

« يحكى من اخبار كرمه انه اشرف يوماً من دار الامارة فرأى امرأة قد هيأت فرخين ونظفتهما وطبختهما طبخاً محكماً ؛ فلما انزلت القدر وقد ادركت دعا بعض فتيانه واراه الدار وقال اذهب فاجعل القدر في قفة وجئني بها ، ففعل واكل منها . ثم امر بغسل القدر ففعلت ؛ وامر بكيس دنانير ففرغ فى القدر حتى امتلات . وقال للغلام امض بها فاجعلها فى يد المرأة ولا تقل لها شيئا ففعل وارادت المرأة ان تطبخ بها شيئا آخر فكشفتها فاذا هى مملوءة دنانير » .

---

(١ انتهت ببغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وقد رأى الخليفة الواثق بالله فى آخر ايامه ان هذه البدعة لم تلق اي نجاح وانها اوقعت العداوة والبغضاء بين المسلمين ؛ وقد انتهت الفتنة على يد الشيخ ابى عبد الرحمان الاسدى ؛ شيخ ابي داود والكسائي ؛ اثر مجلس مناظرة شهير .

وان كان الواثق قد بيض صفحة تاريخه بترك القول بخلق القرآن فقد سودها بوضعه فى بغداد الى جانب الخليفة ؛ سلطانا من الترك البسه بيده التاج وجعل له الحكم المطلق ؛ فنسف بذلك سلطة بني العباس .

# العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة

## ويعرف بابن بربر

كان فى صقلية عين الاعيان ، وكانت له الصدارة والامارة والمقام الاول اثناء ولاية الامير السالف الذكر ، اي الاغلب ابراهيم .

فما كاد هذا الراحل الكريم ينتقل الى جوار ربه ، حتى اجمع اهل صقلية امرهم على توليته الامارة ؛ وبايعوه على السمع والطاعة ، وارسلوا وفداً منهم الى القيروان يطلب الى اميرها محمد بن الاغلب المصادقة على ذلك الاختيار . ونال الوفد مرغوبه فرجع الى العباس بن الفضل بعهد الامير الاغلبى على ولاية صقلية .

فتح قصريانة — كانت همة العباس متوجهة لانجاز الفتح ، واستخلاص البقية الباقية من جزيرة صقلية بايدي الروم والمسيحيين ؛ وهيهات ان يتم ذلك ما دام هؤلاء يعتزون بصياصيهم فى قصريانة ، ويتحدون من تلك الاعالي سلطان المسلمين

كانت قصريانة ميدان حرب وجلاد منذ عشرات السنين ، وكأن الله كتب المسلمين ان يفتحوها نهائيا كما فتحوها اول مرة بواسطة التسلل من ثغرة الى داخلها ؛ واليك البيان :

قبضت سرية من سرايا المسلمين عدداً من الاسرى ، ورأت ضرب اعناقهم ، فقال احدهم وقد تولاه الجبن واستولى على نفسه الصغار : استبقوني وان لاميركم عندى نصيحة تمكنكم من فتح المدينة ؛ فساروا به الى العباس فاستفسره عن جلية الامر ، وكانت النتيجة ان الخائن اخذ الامان لنفسه وآله وذويه مقابل السير مع الجند الاسلامي ليريه طريقا سريا يمكن منه ولوج المدينة دون انتباه الحراس .

بادر العباس بارسال كتيبة من المقاتلة ، تحت امرة عمه ، والعلج الخائن

---

وكان الواثق اعلم الخلفاء بالغناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغانى »

يدلهم على الطريق ، حتى اوصلهم الى قناة يخرج منها ماء المدينة ، فاجتازوا تلك القناة حتى اصبحوا داخل المدينة ، ثم انثنوا الى الابواب فاعملوا السيوف فى رقاب الحراس ؛ وكانت جموع الجند الاسلامى مستعدة للحملة من الخارج ، ففتحت الابواب ودخلها المسلمون ، ورأى المدافعون عن المدينة ان المقاومة اصبحت لاتجدى نفعا فاستسلموا للاسر ، والقوا بالسلاح بين ايدى الغالبين ، وكان ذلك فى منتصف شوال سنة ٢٤٤ ؛ وجاء العباس بنفسه الى قصر يانة فاسكن بها المسلمين وأمر ببناء مسجدها ، وحضر افتتاحه وأدى به فريضة الجمعة .

محاولة فتح رومة — رأى العباس من توافر القوة بين يديه ، واجتماع الناس عليه أن الفرصة قد سنحت لضرب المسيحية الضربة الحاسمة وانجاز العمل الذى فشل فيه المسلمون منذ سنة الا وهو فتح رومة .

ففى سنة ٢٣٩ ؛ جهز العباس اسطولا ضخما يحمل جنداً عتيداً وسيره لانجاز ذلك العمل فنزل الجند الاسلامي عند مصب نهر التيبر ؛ واحتل مدينه اوستى Ostie واخذ يستعد للهجوم النهائي .

الا ان المسيحية التى شاهدت الخطر منذ سنة ؛ وايقنت ان المسلمين سيعيدون الكرة لامحالة ؛ كانت مستعدة لتلقى الصدمة وكان الاسطول المسيحي قوياً عتيداً ؛ فما كاد المسلمون يباشرون هجومهم حتى بدت في الافق طلائع اسطول العدو وعلمت قيادة المسلمين انها لا تستطيع ان تقهر الاسطول وترده على اعقابه ؛ وانها لا تنجو من كارثة وبيلة الا بالانسحاب السريع ، فالقت امرها الى الجند الاسلامي بالرجوع الى مراكبه واستطاعت بمهارة غريبة النجاة من العدو المحدق بها اذ تسللت من بين مراكبه فلم يستطع ان ينالها بسوء واخفقت الحملة على رومة مرة اخرى .

محاولة فتح كريت — سار الاسطول الاسلامى تحت امرة اخى العباس

يؤم سواحل المتوسط الشرقي ، لبسط سلطانه على انقاض سلطان القسطنطينية وليفتك منها سيادة البحر .

حط الاسطول مراسيه حوالي جزيرة اقريطش وناوشها القتال ، فكانت قوية على الدفاع وكانت مستعدة لتلقى الصدمة ؛ فاكتفى الاسطول الاسلامى الصقلي بضربات اصاب بها اسطول العدو ، ورجع لصقلية عائداً بغنائم واسلاب .

انهزام الروم في البحر — كان لانتصار المسلمين بقصريانة واندفاعهم الجريئي فى غمار البحر المتوسط اثر عظيم فى نفوس الروم ؛ وقد علمت القسطنطينية انها ان لم تقض على هذه الدولة الناشئة في صقلية فان نفوذها سيتقلص نهائيا عن حوض البحر المتوسط الغربي ؛ لذلك جهز الروم اسطولا يجمع ثلاثمائة شلندي (١) يحمل نجدات قوية ، وارسلت به مدداً لمدينة سرقوسة ، ليحميها من غارات المسلمين وليمكن الروم من اعادة الكرة واسترجاع البلاد .

لكن سيادة البحر كانت قد انتقلت نهائيا من ايدى المسيحيين الى ايدى المسلمين ؛ وكان العباس ورجال البحر بالمرصاد ، فصمد الاسطول الاسلامي لاسطول الروم وابدى كل من الفريقين اقصى ما لديه من مهارة المناورة وانتهت المعركة بنصر اسلامى مبين ؛ اذ استولى المسلمون على مائة من مراكب الاعداء ، ولاذ الباقون بالفرار راجعين الى بلاد الروم . ويقول ابن الاثير ومن نقل عنه من المؤرخين ان ذلك النصر العظيم لم يكلف المسلمين من الخسارة الا ثلاثة فقط اصيبوا بالنشاب ؛ على انني ألاحظ ان فى هذا الخبر مبالغة لاتخفى على بصير ، اذ لا يعقل ان معركة بحرية تسفر عن اسر مائة سفينة وانهزام مائتين اخريين لا يخسر

(١) نوع من السفن النقالة يدعى بالفرنسية Chaland وقد استعمل العرب هذه الكلمة وجاءت بلفظها فى كتب التاريخ كابن خلدون وابن الاثير وغيرهما .

المنتصرون فيها الا ثلاثة من الشهداء .

بعد هذا النصر العظيم عزم العباس على فتح سرقوسة وتحطيم آخر امل الروم فى البلاد ، فسار اليها على رأس الجند الاسلامي ؛ لكن المرض اعتراه وهو على مقربة من المدينة ؛ فاسلم روحه لبارئها فى ذى الحجة من سنة ٢٤٧ (١) وانطوت بموته صفحة من اجمل وازهر صفحات الجهاد في سبيل التوسع والنور والمدنية ؛ ودفن بموقع استشهاده ، فنبش الروم قبره واخرجوا جثته واحرقوها تشفيا وانتقاما

## عبد الله بن العباس بن الفضل

اجمع المسلمون امرهم يومئذ على تولية ابنه عبد الله ، كما اجمعوا من قبل امرهم على تولية العباس مكان ابيه ؛ فاستلم عبد الله بن العباس زمام الحكم من يد الامة وقد كان فى حياة ابيه العظيم معوانا له فى حروبه وادارته. وأخذ يستعد لأخضاع سرقوسة وينازل قلاع الاعداء

على ان الوفد الذى سار الى القيروان يطلب من اميرها المصادقة على تولية عبد الله الامارة مكان ابيه لم يلق بها النجاح الذى لقيه من قبل وفد الصقليين عندما طلب المصادقة على تسمية العباس بن الفضل .

ذلك ان بلاط القيروان ادرك مقصود الصقليين وعلم انهم ارادوا هنالك الاستقلال بامورهم تحت امرة عائلة ابن الفضل يتوارثونها خلفا عن سلف وبذلك تتقلص سلطة القيروان شيئا فشيئا ؛ فامتنع عن المصادقة واصدر امره لعبد الله بترك

---

(١) فى هذه السنة قتل فى بغداد المتوكل على الله ؛ قتله قائد الترك ( بغا ) مع وزيره الفتح ابن خاقان صاحب كتاب قلائد العقيان ؛ وقد اصبح الترك يومئذ اصحاب القول المطلق في بغداد . وتولى بعده المنتصر بالله ؛ فكان كما قيل فيه :

خليفة في قفص بين بغي و ( بغا )
يقول ما قالا له كما تقول الببغاء

الولاية ، بعد ان شغل مركزها السامى خمسة اشهر سائرا فيها سيرة ابيه وجده ، مواليا الجهاد ساهراً على امور الرعية فصدع بالامر عن غير مضض واصبح من اكبر انصار الوالي الجديد .

## خفاجة بن سفيان

قدم الى صقلية فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ ، وكان شهما عالي الهمة طويل الباع فى السياسة وفي الحرب ؛ واتخذ لنفسه من ابنه محمد ، والولد نسخة من ابيه ، عضداً متيناً يخضد به شوكة الاعداء ويدير بواسطته سياسة الملك .

ابتدأ اعماله الحربية فى الناحية التي بقيت بيد المسيحيين فى شرق الجزيرة ؛ باحتلال مدينة نوطس ( نوتو ) مضيقا بذلك الحصار على مدينة سرقوسة التي كانت رافعة علم المقاومة بتلك الديار ، وكانت آمال الروم وآمال سائر المسيحيين فى استرجاع الجزيرة الصقلية معلقة عليها .

المرأة فى السياسة — لم تقم المرأة المسلمة بدور مباشر كبير فى السياسة العامة ، وكانت قصارى جهودها من تلك الناحية هى بسط السلطان على قصور الامراء والوزراء والقواد ، والاستحواذ بتلك الصفة على النفوذ المطلق وتوجيه السياسة العامة حسب ما يتراءى لها من مصلحة خاصة او نفع عام ؛ على ان التاريخ ضنين بسر هاتيك الحوادث الا ما ذاع واشتهر منها .

لكن من نوادر المسلمين فى جزيرة صقلية ان امرأة مسلمة شاركت بصفة فعلية فى عمل سياسى كبير ، وارسلت في سفارة ومهمة شاقة .

كان أهل طرميس يوالون القتال ضد المسلمين وكانت معاقلهم من امنع المعاقل واشدها مراساً ولقد حاول المسلمون مرارا أن يدكوا اسس هاتيك الصياصي فما استطاعوا لذلك سبيلا واخيرا أظهر المسيحيون هنالك جنوحا للمسالمة والتسليم وارسلوا الى خفاجة يطلبون اليه ارسال وفد يفاوضهم ويضع معهم شروط الاستسلام

فارسل اليهم امرأته واحدابنائه ولا ريب ان امرأة مثل هذه المرأة تسير بمثل هذه المهمة فتخترق صياصي الاعداء ومعاقلهم وتفاوضهم في عقر دارهم تطلب اليهم الاذعان والاستسلام لهي من مفاخر الجنس اللطيف وهي من كرائم السيدات المسلمات اللاتى يجب ان يحفظ لهن التاريخ ذكرهن العاطر الحسن وهي مع ذلك عنوان ازدهار مدنية وبلوغها اوج القمة ودليل قاطع على ما احرزته السيدة المسلمة من قيمة عليا في المجتمع الزاهر تحت الراية الاغلبية بافريقيا او بصقلية

نجحت السفارة نجاحا كبيرا وكأن القوم قد تأثروا بذلك المعنى البديع اللطيف الذى احتوى عليه ارسال سيدة جبلت على الخير والاحسان والعطف فلبوا دعوتها واذعنوا لامرها وسلموا مفاتيح المدينة لها فدخلها المسلمون صلحا

لكن قضى الله ان تهلك المدينة على يد اشرارها فنقضوا العهد بعد ميثاقه وثاروا بالمسلمين على حين غفلة فاخرجوهم غدرا واوصدوا دونهم الابواب ونكلوا بمن بقي منهم داخل الجدران ثم اعتصموا بالقلاع .

رأى خفاجة يومئذ ان السكوت على مثل هذه الخديعة يعد ضعفا وهوانا وانه ان ترك الامر بدون انتقام يوشك ان يتخذه القوم نموذجا للانتقاض فى كل مكان ، فارسل ابنه المجاهد محمد ، على راس كتيبة من المسلمين شديدة المراس ، فاحتل المدينة قسراً وسبى اهلها ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

مقاومة سرقوسة — كانت سرقوسة كما اسلفنا قوية منيعة ؛ وكانت محط آمال المسيحية بتلك الديار ؛ وكانت القسطنطينية توالي انجادها بالمدد رغم ما اصابها في ذلك الطريق من نكبات بحرية ؛ فاتجهت همة الامير خفاجة لقهر سرقوسة واخماد جذوة المقاومة فيها فرماها بفلذة كبده محمد ؛ على رأس جند عتيد واشتعلت بين الفريقين نار حرب عنيفة استبسل فيها المدافعون استبسالا سجل لهم صفحة من العزة والفخر .

وكانت الوقائع تترى عنيفة دامية ، منها وقعة الالف فارس الشهيرة سنة ٢٥١ وتفصيلها ان الامير محمداً هاجم المدينة بعنف ، ثم اظهر الارتداد خدعة حربية ، وشر كا نصبه للمدافعين عنها فوقعوا فيه وخرجوا من معاقلهم يتتبعون الجندالاسلامي الذى اظهر الانهزام ؛ وكان الكمين الاسلامي يكتنف الطرق ، فباشارة من القيادة انقض المسلمون من مكامنهم على الاعداء المتتبعين فاطبقوا عليهم واسفرت المعركة عن قتل الف فارس من الروم .

وفى سنة ٢٥٤ ، سار محمد بقوته بحراً لمنازلة سرقوسة كما كانت قوته البرية تضيق عليها الخناق ، فالتقى في مياه المدينة بعمارة كبيرة ارسل بها امبراطور الروم نجدة للمحصورين ، وكان الاسطول الاسلامى الصقلي قد تعود قهر اسطول الروم حيثما ثقفه ، فاختلطت صواري المسلمين بصواري النصارى والتحمت نيران المعركة البحرية ، فاسفرت عن انهزام الروم ، وتركهم لاغلب سلاحهم ومتاعهم بايدى المسلمين وفرت المراكب السليمة راجعة على اعقابها خاسرة .

وهكذا فت فى عضد الدفاع السرقوسي بحراً كما فت في عضده براً ؛ واصبحت المدينة لا تستطيع الثبات فى الميدان طويلا لكنها صممت على الدفاع الى آخر رمق ، ولم يكتب الله فتحها على يد خفاجة وابنه محمد .

حادثة طبرمين — كانت هذه المدينة من جملة قلاع النصارى التى صعب على المسلمين فتحها بالقوة ، فكانت المناوشات تتوالى حولها ، وكان دفاعها دفاع المستميت جاء الامير محمد ، وصمم على فتحها ، فاصطنع رجلا من اهلها اعماه حب المال والجاه عن حب الوطن والتضحية في سبيله فخان امته واصبح دليلا للمسلمين ، يسير بهم في معابر سرية اوصلتهم الى داخل المدينة والتحمت نيران المعركة هنالك

راى المسلمون ان الامير محمدا لم يدخل المدينة ولم يكن الى جانبهم فاعتقدوا انه قد حيل بينه وبين الدخول وانهم اصبحوا مهددين بالحصر فانهزموا ورجعوا

من حيث اتوا ، وكانت الفرقة التى يقودها الامير محمد بنفسه قادمة حينئذ لنجدة الذين دخلوا ، فلما راتهم خارجين اعتقدت انهم غلبوا على امرهم فتوقفت عن السير واثناء ذلك الارتباك ، وقبل ان يعلم الفريقان المسلمان ان فى الامر غلطة يسيرة ، كان اهل المدينة قد تخلصوا من المسلمين فاوصدوا ابوابهم واعتصموا باسوارهم ، وخابت المحاولة بعد نجاح .

فتح مالطة — كانت جزيرة مالطة معقلا من معاقل الروم فى البحر المتوسط استولوا عليه سنة ٥٣٣ ، واصبحت حلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم في الغرب .

والجزيرة تمسح ٢٥٠ كيلو مترا مربعا ، جيدة الهواء خصبة الارض طيبة المناخ واهلها من اصل سامي كنعاني لا ريب فيه ؛ لغتهم منذ القدم عربية محرفة وقد طبعهم الاحتلال القرطاجني الطويل بطابع خاص دام معهم الى يومنا هذا .

فالامير خفاجة رأى انه لا يتمكن من ابعاد الروم نهائيا عن صقلية وقطع آمالهم منها وقهر سرقوسة الا باخضاع مالطة لسلطانه ، ومالك مالطة منذ قديم الازمان مهيمن على البحر المتوسط باسره .

سار الامير محمد على راس اسطول عتيد وجند عتيد ، فنزل مالطة سنة ٢٥٦(١) ( ٨٧٠ م ) واتم استيلاءه عليها تلك السنة ، بعد ان دحر مقاومة الاسطول الرومي

---

(١) في هذه السنة تولى الامير احمد بن طولون امر مصر ، وطولون كان مملوكا تركستانيا اسر ضمن معركة ، فاعجب به الخليفة المامون ، وجعله من خاصته ورئيس حرسه ، وعندما ولي احمد امر مصر وكان اعلم الناس بضعف دولة بني العباس ، ورأى حالة مصر من جراء اضطراب الولاة وهوجهم ؛ اعلن استقلاله فى البلاد ومنع الخراج عن بني العباس ؛ واستمرت دولته ٣٥ سنة الى ان اعاد العباسيون فتح مصر من جديد ؛ ومن مآثره مسجد ابن طولون العظيم .

ومقاومة الحامية الرومية ، ووجد المسلمون الافارقة الصقليون انفسهم هنالك بين قوم كادوا يكونون من اهلهم وذويهم ؛ واستمر سلطان المسلمين هنالك تابعا لأمارة صقلية ، مائتين وعشرين عاما ( ٨٧٠ ـ ١٠٩٠ ) الى ان استخلصها منهم غزات النرمان عندما دحروا آخر مقاومة اسلامية فى جزيرة صقلية .

وفي السنة الموالية ، اى سنة ٢٥٧ ارسل الامبراطور الرومي اسطـولا ضخماً يحاول به استرجاع مالطة ، وقد ادرك ما هي الكارثة التي اصابت الروم بفقدها ، فجاء الاسطول الرومي يتباهى بقوته ومنعته ونصب حول الجزيرة حصاراً ، واخذ يستعد لانزال جند يرفع فوق اديمها علم القسطنطينية .

حينئذ جمع الاسطول الاسلامي الصقلي رجاله وسفنه وسار نجـدة الى جزيـرة مالطة ؛ ولقد علم الروم من قبل انهم ما لقوا اسطـول مسلمي صقلية الا وارتـدوا امامه خاسرين ؛ وقد القى ذلك الاسطول الاسلامي الرعب في قلوبهم واصبح منظره يكفى لهزم اعدائه قبل استعمال ناره واسلحته ؛ وهكذا كان . فانه لم يكد اسطول الروم يرى مراكب المسلمين قادمة نحوه حتى نشر شراعاته واعمل مجـاذيفه ولاذ بالفرار نحو الشرق وصفا حكم مالطة لامراء المسلمين .

## محمد بن خفـاجة

اثناء هذه المعارك وهذا الفوز المبين كان الامير خفاجة يسير مع جنده واتباعه فى طريق سرقوسة فاغتاله غدرا احد الجند ولا ندرى ان كان ذلك نتيجة مؤامرة او عمل انتقام او دسيسة من الاعداء فقضى نحبه رحمه الله بعد ولاية دامت سبعة اعوام كلها عمل وجهاد في سبيل الاسلام والمعرفة والمدنية

اتفق المسلمون يومئذ واجمعوا امرهم على تولية ابنه الامير محمد مكـانه ولقـد كان القائم بأعباء الجهاد الى جانب ابيه وسار وفد الى القيروان يطلـب الى الملك الاغلبي محمد بن احمد المصادقة على تلك الولاية فلبى الطلب واصدر امره باسنـاد

امارة صقلية الى محمد بن خفاجة لانجاز ما كان قائما به من جلائل الاعمال .

وقد اولاه المسلمون امرهم فى رجب سنة ٢٥٥ ووردت اليه الخلعة والعهد من القيروان يوم السبت لست بقين من رمضان من تلك السنة.

وقد كان الامير رحمه الله يوالى استعداده ويجهز المسلمين للقضاء على ما بقي من صقلية بايدى الروم وخاصة مدينة سرقوسة التى كانت مطمح انظاره .

لكن مقتل الامير خفاجة كان قد احدث صدعاً عظيماً في صفوف المسلمين ونشأت عنه ارتباكات عظيمة جعلت جهود الامير متوجهة لاقرار السلم وتمهيد الراحة بدل التوجه بكليته لانجاز الفتح . وما كادت تنقضى سنتان على ولايته حتى اغتاله نهارا ثلاثة من خدمه فى رجب سنة ٢٥٧ . ولقد انفتحت بمقتل الشهيدين خفاجة وابنه محمد ابواب فتنة عمياء اصبحت في الجزيرة داء عياء كان اكبر اسباب انهيارها .

## أحمد بن عمر يحيني

وهو من رجالات العائلة الاغلبية اولاه الامير ابراهيم بن احمد بن الاغلب امر صقلية وكان اول همه اقرار الامن وارجاع الطمانينة الى النفوس وازالة ما احدثه مقتل الأميرين محمد وابيه خفاجة من جزع ومن ارتباك

لا ريب ان الامير احمد قد لقي نجاحا كبيرا فى مهمته تلك فلم يسجل التاريخ فى ايامه ارتباكا او اضطرابا ؛ وعاد الى سياسة الغزو والفتح ، جامعاً بذلك كلمة المسلمين حول راية الله .

ذهب فى صائفة تلك السنة غازياً نحو سرقوسة فانخن فى الروم ، انما لم يستطع فتح المدينة ، ولا نصب الحصار بصفة ضيقة حولها فاكتفى بما غنمه من اطرافها ورجع الى قصر حكمه فى بالرمة .

ثم خرج بنفسه فى غزوة على رأس المسلمين ، فلقي جنداً من فرسان العدو

عند مكان يدعوه ابن الخطيب « قلعة نصر » وكان اولئك الفرسان قد انقضوا فى بعض الجهات على المسلمين وغنموا منهم مغانم كثيرة ؛ فالتحم احمد ومن معه فى القتال مع الجند المسيحي ، فنكل به تنكيلا ، وانتزع من بين ايديه جميع ما غنمه من المسلمين ورجع الى بالرمة بالاسلاب والغنائم والاسرى ورؤوس القتلى لتعرض على الملا .

ثم جاءه من القيروان ، امر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بعزله عن الامارة فاعتزلها ؛ وكان بذلك ابتداء عهد اضطراب جديد لم يكن مصدره صقلية نفسها بل كان مصدره عاصمة الدولة القيروان ؛ اذ كان البلاط الاغلبى يقاسي يومئذ ازمة عنيفة ، وقد تولى عرش الملك ابراهيم الآنف الذكر ، وهو جبار عنيد طاغية شديد كان مصابا بنوع من الهستريا الدموية ، يعيش تحت رحمة ماليخوليا مستمرة ؛ وسيأتيك فيما يلي شيء من اعماله الغريبة ، فلا غرو ان تسربت الى المملكة قاصيها ودانيها عوامل الشقاق والافتراق ، واخذ الصيادون فى المياه العكرة يعملون اعمالهم وينصبون حبائلهم ، واصبحت امارة صقلية خلال تلك الايام النحسة كرة تتلقفها الايدي وتتلاعب بها الغايات .

## جعفر بن محمد بن بربر

ارسله ابراهيم بن الاغلب واليا مكان احمد بن عمر ؛ واستقر به المقام فى بالرمة ، واخذ يعيد النظام لبلاد تسربت اليها الفوضى واخذت تعمل بها عوامل الانحلال .

فى هاتيك الاثناء ، كان الارتباك كما اسلفنا سائداً فى بلاد القيروان وكان ابراهيم الطاغية يقاسي ازمة عنيفة في داخل نفسه وفي بلاطه وبين آله وذويه ، وكانه قد آنس من عائلته ميلا للتخلص منه ، فالقى القبض على عمه الاغلب بن محمد واخيه الاغلب ابن احمد وابن اخيه احمد بن ابى عبدالله ؛ ووجههم الى صقلية

مبعدين فحبسوا فى دار الامارة عند جعفر بن محمد .

كان احمد بن ابى عبدالله اكثر الاغالبة المحبوسين مكراً ودهاء ، واقدمهم على الاندفاع فى طريق المغامرة ، فصانع هو ومن معه من رجال العائلة غلمانا للامير جعفر ، واطمعوهم فى المال والجاه ان هم قتلوه ، فترصدوا له حتى اذا كان خارجا للصلاة وثبوا عليه واسقطوه تحت ضرباتهم الفتاكة ؛ واستولى احمد على كرسي الحكم ، مصطنعاً الرجال متغلبا على الامر .

## احمد بن ابي عبد الله الاغلبى

ويلقب فى عائلته باسم « خرج الرعونة » ولقد كان مقداما ، وسجل اسمه على صفحات التاريخ الصقلى ، رغم سفالة الوسيلة التي توصل بها الى الحكم ، وكانت له في الجهاد وانجاز الفتح اعمال باهرة .

فتح سرقوسه — اتم تجهيز الجند الاسلامى ؛ وسار على رأسه نحو مدينة سرقوسة ، وقد عقد العزم على افتكاكها كلفه ذلك ما كلفه ، وكانت سرقوسة بعد ان قاومت جيوش المسلمين نصف قرن ونيف ، قد ضعفت تحت الضربات الفتاكة التى كيلت لها من لدن الامراء السالفين ، وعلى الاخص الامير خفاجة وابنه محمد ، وكان الروم قد وضعوا شرفهم العسكرى بين جدران تلك المدينة ، فكانوا يوالون ارسال النجدات والمدد وما باءوا بانكسار وانهزم لهم اسطول إلا اعادوا الكرة وارسلوا اسطولا آخر مما يعيد إلى اذهاننا جهود قرطاجنة الجبارة التي ضاعت سدى فى تلك الجزيرة

سار أحمد بن الاغلب بقوته العتيدة فخيم حول المدينة وحاصرها وضيق عليها الخناق . وعلم اهلها ان الساعة الاخيرة قد دنت ، فقاموا للدفاع البائس المستميت يتفانون فى الذود عن مدينة كانت فى انظارهم تمثل الوطن وتمثل الدين وتمثل الذكريات القديمة من عهد ارخميدس وما قبله ؛ ويالله! ما اروع البطولة وما اجمل

ذكراها ايا كان مصدرها وأنى كان القائمون بها !

استمر الحصار تسعة اشهر من اوائل المحرم الحرام إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ (٨٧٨) (١)، ثم دهمها بخيله ورجله ورفع المسلمون عقيرتهم بندائهم الحربي الذى يسمو بهم إلى عالم الأرواح فى الملأ الأعلى : الله أكبر : والتحمت نيران معركة ربما كانت اكبر معارك صقلية وأكثرها هولا : وما انتهت الا بعد ان دكت الأسوار وسقطت القلاع وجندل من الابطال المدافعين ما يزيد عن الأربعة آلاف كميت وركب الباقون البحر مغامرين فراراً من الاسر والذل ، ودخل المسلمون المدينة مهللين مكبرين ؛ قال ابن الخطيب فى اعمال الاعلام : « وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد فى مدينة من مدن الشرك » .

وبهذا النصر الباهر لم يبق للمسيحيين بصقلية الا الناحية الشرقية في شريط من الارض يمتد من شمال طبرمين الى جنوب قطانية يحتمون فيه وراء جبال الاتنا ( جبل النار ) ويستمدون فيه الاعانة مما يرد عليهم بحرا من بلاد الروم .

وكانت هنالك مراكز للمقاومة المسيحية بالشمال الغربي من الجزيرة حول مدينتى طرابنة ومرسالا . وقد اهمل المسلمون شأنها ، ولم يعيروها كبير اهمية ،

---

(١) في هذه السنة ، استقر الاتراك في بلاد الصين ، وتدخلوا فى شؤونها وتوطد سلطانهم فى كثير من الجهات التى هي إلى يومنا موطن المسلمين الصينيين وذلك أن مغامراً صينياً (هوان تشاو) اعلن الثورة ، وتمكن من اغلب البلاد ، من بكين الى كنطون ، فاستعان امبراطور الصين ،بخان الترك اليسع ينغ فانجده بقوة عتيدة ، مهدت أمر البلاد ، ودحرت الثائر ؛ واستلم الخان التركي، مكافأة له على اعانته للامبراطور ، مقاطعة شان سى . واخذ ابن عمه ، مقاطعة لوثان . ونشأت هنالك امارات تركية ،طبعت البلاد بطابعها الى يومنا هذا ؛ حيث المسلمون يمثلون اغلبية البلاد ومنهم بقايا الترك ومن اسلم تبعا لهم من الصينيين .

موجهين اكثر عنايتهم للناحيـة الشرقية . فلما فتحوا سرقوسـة وجهوا أنظارهم نحو الناحية الغربية كما سيمر بك فيما بعد .

اقام احمد بن الاغلب بسرقوسة شهرين ، ثم كتب اليه عمه الاغلب يشـير عليه بتهديمها ، كما امر حسان بن النعمان من قبل بتهديم ما بقى من قرطاجنة ، حتى ينقطع آخر امل للروم بتلك الديار ولا يجدوا معقلا يأويهم ان حاولوا النزول للبر؛ ثم رجع لبالرمة لكن مقامه لم يطل هنالك اكثر من شهرين ، وما اغنى عنه انتصار سرقوسة شيئا ، فان اهل بالرمة اعني كبار القوم واصحاب الحل والعقد بها راوا من اختلال الادارة على يد احمد وعمه الاغلب ومن معهما ما جعلهم يقبضـون عليهما ، ويرسلون بهما مصفدين الى القيروان ، وماذا كان ينتظرهما هنالك على يد النمر المتعطش للدماء ابراهيم بن الاغلب ، غير السيف والنطع ؟

## الحسين بن رباح

اضطرب امر الولاية بصقلية اثر هذه الحوادث اضطرابا غريبا ، فكان ابراهيم بن الاغلب يولي ويعزل حسب اهوائه وشهـواته ، او حسبمـا تمليه عليه مصلحة الدولة ، وكان اهل صقلية منذ مقتل خفاجة ، قد الفوا نوعا من الفوضى ، واصبحوا يريدون التحكم فى الولاة ويريـدون ان يسير اولئك الولاة حسب اهـوائهم واغراضهم ؛ وكان الولاة لا يستطيعون فى الغالب التوفيق بين رغائب اهل صقلية ورغائب بلاط القيروان وتنفيذ آرائهم الخاصة ، فالبعض منهم كان يثور به الصقليون فيرجعونه الى القيروان والبعض الآخر كان يعزله ابراهيم ويرسل غـيره مـكانه ؛ والحق ان بنيان الدولة الاغلبية كان قريبـا الى الانهيار ، وكانت سياسة ابراهيم الثـاني قد اصابت الدولة فى مقاتلهـا ، فاستمر امرهـا يسير الى الضعف والانحلال حتى الموت رغم ما كان يبدو عليها بين حين وآخر من وثبات فى سبيل الحيـاة هي اشبه شيء برجفة المحتضر .

من اجدر هؤلاء الولاة بالذكر ، الحسين بن رباح ، فانه تمكن من جمع الجند وتوحيد الكلمة الى حين ونازل مدينة طبرمين ؛ رائما بذلك القضاء على الناحية الشرقية الرومية ، فأثخن فى اهل المدينة وقتل البطريق الرومي الذى كان يحكمها ويقود حاميتها .

نكبة بحرية — ولقد سرى داء الانحلال فى سائر الجسم الاسلامي فضعفت النفوس ، وكادت تخبو جمرة الايمان ، وفقد رجال البحر قوتهم الروحية التي كانت اساس انتصارهم ومبعث الرعب في قلوب اعدائهم ؛ وكانت نتيجة ذلك ان مني الاسطول الاسلامي بصقلية بنكبة كانت وحيدة فى بابها .

ذلك ان الحسين بن رباح سير اسطوله غازيا سنة ٢٦٦ ، فلقي اسطولا للروم مؤلفاً من ١٤٠ سفينة ، والتحم القتال شديداً بين الطائفتين ، فتغلب هذه المرة اسطول الروم ؛ وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ، ورجعوا على طريق البر منهزمين الى صقلية .

## الحسين بن العباس

جاء واليا سنة ٢٦٧ ؛ ورجع للقيروان معزولا سنة ٢٦٨ ؛ اراد التضييق على الروم المحصورين فى قطانية وطبرمين ؛ ولم ينجح فى ذلك كثيراً ، اذ ان الروم اغتنموا فرصة الانحلال الذى ظهرت آثاره جلية في الادارة الاسلامية فاصبحوا يخرجون من بين جدران قلاعهم سرايا تضيق على المسلمين كثيراً ؛ وتغنم منهم المتاع والاسلاب والاسرى .

لكن همة الحسين بن العباس كانت متوجهة الى تمهيد الامن واصلاح الحالة العامة ، وقد نجح في ذلك خلال السنة التي بقي فيها على رأس الادارة الاسلامية نجاحاً كبيراً .

# ابو الحسن محمد بن الفضل

ولي الامر سنة ٢٦٨ ، وكان الامن قد استتب والراحة قد تمهدت بفضل جهود الحسين ابن العباس ؛ فاخذ الوالي الجديد يستعد لدحر قوى الروم التى كانت تعيث في الارض فساداً عندما آنست من المسلمين ضعفا وافتراق كلمة .

اتجه على رأس القوة الاسلامية ، يريد جموع الروم فى معقلهم الجديد ( قلعة الملك ) وكان ذلك المعقل هو الذى يقض مضاجع المسلمين ، ويثخن فيهم حينا بعد حين ، فالتقى الجمعان على مقربة من المعقل ، وكانت طمأنينة الايمان قد رجعت الى نفوس المؤمنين ، فثبتوا امام الاعداء واشتد مراسهم الى ان انتهت المعركة بنصر عظيم ، وخسر الروم ما يزيد عن الثلاثة آلاف من القتلى انتشرت اجداثهم فوق ميدان القتال ثم سار المسلمون نحو ( قلعة الملك ) فاحتلوها وثبتوا بها الاقدام ، وتركوا بها حامية قوية ، ثم رجعوا لبالرمة تخفق على رؤوسهم اعلام النصر .

ثم فى سنة ٢٦٩ سار على راس الجند الاسلامى يريد تحطيم مراكز الروم فى الناحية الشرقية ، فالتقى بجند العدو وناوشه القتال ، واخترق في بعض الاوقات صفوفه حتى وصل تحت جدران قطانية ؛ لكن المدينة استعصت عليه ، وكذلك كان امر رمطة فلم ينل منهما منالا واكتفى بما استحوذ عليه من غنائم واسلاب ورجع لبالرمة في ذى الحجة من تلك السنة . وقضى بقية ايامه ساهرا على امور البلاد مدبرا سياسة الملك ، ممعنا فى اعمال الدمران والرقي المادى الى ان عزل عن الولاية سنة ٢٧١ في ربيع الاول .

# سوادة بن محمد بن خفاجة

هو حفيد خفاجة بن سفيان والي صقلية الطيب الذكر وقد ارسل به ابراهيم ابن الاغلب واليا فى منتصف شوال سنة ٢٧١ بعد ماعزل عنها علي بن ابي الفوارس الذى لم تطل ايامه اكثر من ستة اشهر ، لم يذكر التاريخ عنها خيرا ولا شرا .

عودة الروم — اهم حدث سجله التاريخ فى هذه الايام ،هو عودة الروم بقوة للميدان ،والتحام المعركة الحامية بينهم وبين المسلمين ، كأن الروم قد رأوا من اختلال الادارة في بعض الاحيان ومن تفرق كلمة المسلمين الناشئين عن اضطراب في سياسة البلاط الاغلبي نحو صقلية وتوارد الولاة وعزلهم حسب الاهواء والمصالح والاغراض ، راوا فى ذلك ما جعلهم يعتقدون ان الفرصة قد سنحت لاعادة الكرة واستخلاص الجزيرة من يد المسلمين .

ابتدأت هذه الحملة الرومية الجديدة ، بعقد هدنة مع المسلمين كانت فيما اعتقد خدعة حربية ماهرة ؛ وكان المسلمون قد ارتكبوا غلطة فادحة بقبولها ؛ وقد غرهم ان الروم اطلقوا سراح ثلاثمائة اسير من المسلمين فى سبيل ذلك الصلح الموقت ؛ وما كان ذلك الا استعداداً منهم لأمر عظيم ؛ فما كانت تنتهى الثلاثة اشهر ، حتى كانوا رتبوا امرهم بعد اختلال وحصنوا مراكزهم بعد ضعف ، وجاءهم المدد العظيم من القسطنطينية تحت امرة البطريق مجفور (Nicefors) فانزل جنده البر ، دون ان يلقى اعتراضا من اسطول المسلمين ؛ وتقدم فى جموع وفيرة العدد كاملة العدة ، فاستخلص من المسلمين مدينة سبرينة Santa Severina ومدينة منتية Amantéa واشتد الخوف يومئذ على صقلية ، اذ كانت بنفسها وبمجرد قواها لا تستطيع ان تصمد لزحف الروم ان توالت نجداتهم وباشروا اعمالهم بتلك الصفة .

رأى اهل صقلية ان سوادة بن محمد ليس بالرجل الذى يصلح لادارة الملك والحرب في مثل هاتيك الاوقات العصيبة ، فاعلنوا خلع طاعته وارسلوا به صحبة اخيه واهله الى القيروان سنة ٢٧٣ .

والذى تجب ملاحظته هنا هو ان اهل صقلية كانوا اذا راوا خلع امير انقياداً لمصلحة عامة او اندفاعا مع غرض ، قبضوا عليه وارجعوه صحبة اهله الى القيروان ليصنع به الملك ما شاء وليحاسبه على اعماله ؛ فكان ذلك العمل يدل على مبلغ ما

كان لهم من مهارة وحسن تدبير ، رغم القلاقل ورغم الاضطراب ، وما سفك دم احد الولاة الا نادراً وعلى يد اوغاد من الدهماء .

## ابو مالك احمد بن عمر حبشي

هو من احفاد ابراهيم ابن الاغلب الكبير ، مؤسس العائلة ؛ وكان عمدة في البلاط الاغلبي ؛ ارسل به الملك ابراهيم الثاني عاملا على صقلية ، كأنه قد اعتمد على جاهه وفضله ومكانته ، ليرجع الى النفوس ثقتها ، وليثبت لاهل صقلية مدى اهتمام القيروان بها ، فكانت هذه الولاية اشبه بسفارة منها بامارة .

ولقد نجحت المهمة نجاحا كبيراً ، فهدأت الثائرة واطمأنت الافكار ؛ وعاد الامن الى نصابه وانتظر الناس الفرج القريب ، في صورة مدد جسيم يفد من القيروان ويعين المسلمين على قهر شوكة الروم الذين كانوا يستعدون لأمر جسيم .

وكان اهل صقلية قد طلبوا الى الملك ابراهيم ان يولى عليهم ابنه ابا العباس عبد الله لما يعرفون من مهارته في السياسة وفي الحرب ، وكما املوا على يديه من انقاذ الجزيرة تجاه الخطر الرومي ، وقد اعتقدوا ان الوالد لا يعزل ولده في مدة وجيزة ، ولا يبخل عليه بنجدة او مدد ، فتستقر بذلك امور الادارة ويستقيم بذلك امر الجهاد ، وهكذا كان .

## ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

### ممثل الدولة ونائب الملك

ولقد كانت امارة ابي العباس عبد الله امارة عامة تشرف على امور البلاد ، وتراقب سير الولاة ؛ لاننا ان تصفحنا سائر كتب التاريخ التي اوردت لنا الاحاديث عن صقلية وخاصة ابن الخطيب في اعمال الاعلام وابن الاثير وغيرهما رأينا ان الولاية كانت اثناء تلك المدة مداولة بين ابي العباس محمد بن الفضل

وقد كان عزل سنة (٢٧١)(١)والحسن بن احمد بن نافد فكان الامير ابو العباس عبد الله يمثل يومئذ ما يمكن ان نسميه باصطلاح اليوم : نائب الملك او المندوب السامي . فالاعمال التي ستراها مبينة اثناء ولاية هذين العاملين كانت تقع مباشرة تحت اشراف الامير ابي العباس عبد الله .

الانتصار البحري — ابتدأ هذ العصر الجديد يظهر آثاره وقد كانت الحاجة ماسة لاظهار القوة امام الروم والقيام بعمل يوقف تيار هجومهم المخيف فاول شيء اتجهت اليه همة نائب الملك هو اعادة النظر في امر الاسطول وتجهيزه من جديد بصفة تجعله قادرا على مقاومة العدو وكسر شوكته ؛ فبذل في سبيل ذلك همة عالية واظهر مراسا شديداً فبدت النتائج الحسنة بعد حين .

ذلك أن الروم ارادوا أن يستثمروا فوزهم السالف فارسلوا نجدة ذات قوة وباس شديد ؛ وكانوا يريدون بها القضاء نهائيا على ملك المسلمين بصقلية .

لكن المسلمين كانوا هذه المرة على غير ما كانوا عليه في المرة السالفة ؛ كانوا مستعدين يقظين منتبهين ؛ فما كادت بوادر الاسطول الرومي تظهر ، وما كادت عملية انزال الجند الى البر تبتدىء حتى التحمت فوق اديم الارض وفوق عباب البحر

(١) من اغرب ما وقع لبني العباس اثناء ضعفهم وانحلالهم ان الزنوج هاجموا مدينة البصرة واحتلوها ، ثم تدفقوا على اعمالها ، فامعنوا في الحرق والنهب والسلب وانتهاك الحرمات وسفك الدماء ؛ وقاتلهم العباسيون والجند التركي مدة الى ان تمكنوا من القضاء عليهم في هذه السنة (٢٧٠) وقتل رئيسهم يهودا ؛ وقد كان يدعي انه نبي مرسل ، وكان له منبر يصعد عليه ويمعن في سب عثمان وعلي ومعاوية وطلحة والزبير ؛ فلما قتل وانتهى امر الزنوج ، زينوا بغداد وطافوا برأس يهودا على رمح .

معركة هائله عنيفة ، لم يكن الروم ينتظرونها ؛ وكانت تلك المعركة بالنسبة للمسلمين معركة فاصلة بين طريقي الموت والحياة ، وكانوا يعلمون علم اليقين انهم ان خسروها فالام على صقلية وسلام على ملك وعمران وحضارة زاهية بها .

دامت المعركة أياماً وثبت المسلمون ثباتاً مكنهم آخر الامر من الغلبة والفوز وكانت كارثة الروم هائلة فظيعة ، اذ تركوا على اديم الارض ما يزيد عن السبعة آلاف قتيل ؛ وعندما رأوا مدى الكارثة ، ولاذوا بالفرار الى ما بقي باسطا جناحي شراعاته من مراكبهم ، غرق منهم اثناء تلك العملية نحو الخمسة آلاف فرجعت بقايا الاسطول من حيث اتت ، واضطر الباقون من الروم والمسيحيين لاخلاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين اثناء السنوات السالفة وفرح المسلمون يومئذ بنصر الله وقد وقع ذلك سنة ٢٧٥(١)(٨٨٩م)

قلورية — كان الروم قد تحصنوا فى ارض قلورية التي يفصلها عن صقلية مجاز مسينا . وكانوا يريدون بذلك ان يحولوا دون انتشار المسلمين في الجنوب الطلياني وأن يقطعوا الصلة بين مسلمى صقلية ومسلمى ايطاليا ؛ وعلى الاخص كانوا يريدون ان يجعلوا من قلورية مركزا لمهاجمة صقلية ولامداد حاميات طبرمين ورمطة وغيرها

فالمسلمون اغتنموا فرصة انتصارهم العظيم على اسطول الروم وعلى جندهم واغتنموا فرصة الفزع الذى ساد فى اوساط المنهزمين فجمعوا الاسطول والجند وهاجموا قلورية من وراء المجاز فاثبتوا بها اقدامهم ودحروا من تعرض لهم هنالك من الروم وجموع المسيحيين .

---

(١) فى هذه السنة اكمل الامير اسماعيل زعيم بنى سامان الفرس استقلال بلاد ما وراء النهر اذ ابتدأ امره بالتمركز في بخارى وسمرقند ثم اعلن انضمام بلاد خراسان لمملكته ؛ واستمرت الدولة السامانية حاكمة تلك الناحية طيلة القرن العاشر الميلادى (٩٠٠-١٠٠٠)

قدم صقلية هاتيك الاثناء محمد ابن الفضل واليا للمرة الثانية فى الثاني من صفر سنة ٢٧٩ .

وكانت الاعمال مستمرة على التوالي فى شبه جزيرة قلورية إلى أن أذعن الروم هنالك لعقد هدنة مداها اربعون شهراً يحتفظ اثناءها كل من الفريقين بمراكزه على ان يطلق الروم سبيل الف من اسرى المسلمين ، وان يرسل المسلمون بضع رجال بين عرب وبربر بصفة رهائن يقع استبدالهم كل ثلاثة اشهر .

فتنة عمياء — ولي الامارة بعد ابن الفضل سنة ٢٨٤ ؛ الحسن ابن احمد ابن نافد ، تحت اشراف نائب الملك المذكور حسبما اسلفنا ؛ وكانت هنالك نار تحت الرماد ، وكانت هنالك فتنة نائمة ، فتنة العصبية الجاهلية ونار النعرة العنصرية فلامر ما نسي المسلمون الاخوة الاسلامية ؛ ونسوا عدوا يترقب بهم الدوائر دوائر السوء من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ومن وراء العدوة ؛ وقد تولى كبر هذه الفتنة جماعة من العرب وجماعة من البربر ، فكانت فتنة لم تصب الذين ظلموا خاصة واظهر سفهاء القوم من العنصرين حمية جاهلية فانغمس المسلمون فى حمأة حرب اهلية قاسية ، لم يستطع العقلاء اخماد نارها ، فعم الفساد وساد الاضطراب .

ارسل ابراهيم ابن الاغلب جندا الى ولده ونائبه ابي العباس ، وجم اليه كما يقول ابن الخطيب ، جياد الرجال واشداءهم فنزل الجند ارض صقلية فى جمادى الاخيرة من سنه ٢٨٤ ، وكان قد ارسل اليهم انذاراً مؤداه : انه يؤمن الناس على انفسهم واموالهم وذويهم ان هم جنحوا الى السلم وتركوا امر الفتنة ما عدا الذين تولوا كبر الحرب الاهلية ، وهم الحسن بن يزيد وولداه وعبد الله الحضرمى .

حارب رجال السلطة الثائرين والمفسدين وتغلبوا عليهم وشتتوا شملهم ووضعوا يد العدل فوق اعناق المجرمين ، فاما الحسن بن يزيد فقد شرب سما ، وكانت بيده لا بيد عمرو ؛ واما الباقون فقد نفذ فيهم امر الله وقطعت رقابهم وساروا من العار

الى النار ؛ ودخل الجند الحكومى مدينة بالرمة بعد اخماد الفتنة فى العاشر من رمضان سنة ٢٨٧ ، وامن الناس واستتب الهدوء من جديد .

ولقد اراد الروم اغتنام تلك الفرصة ، فجمعوا اسطولهم وقدموا نحو الجزيرة لكن الفتنة الداخلية لم تمنع السهر الخارجي ، اذ صدمت فرق من اسطول المسلمين لمراكب الروم فدحرتهم ؛ وغنمت منهم ثلاثين سفينة .

## أبو اهيم بن الاغلب

قال ابن الخطيب فى اعلام الاعلام :

وفى سنة ٨٩ عظم المرار والوسواس على الامير ابراهيم بن احمد وتخلى لابنه الوالي بصقلية على الامر ، واستفز الناس ودعاهم الى الجهاد ، وفرق الاموال وكان وصوله الى بالرم من صقلية لليلتين من رجب من السنة فرحل الخ .

نعم ـ لقد عظم به المرار والوسواس، او بالاحرى عظمت به النوبات الجنونية التى تسلطت عليه طيلة ايام ملكه ؛ فرأى ان يخوض في بحر من دماء الجهاد ، بعد ان خاض فى بحر من دماء امته وعائلته ورجال دولته ؛ فاظهر الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة واستدعى من صقلية نائبه بها ، ابنه ابا العباس عبد الله فتنازل له عن عرش القيروان الذى خضبت اركانه بدماء الابرياء ، والذى اخذت تزعزعه عواصف الدعوة الفاطمية ؛ ثم سار ابراهيم ليقضي بقية ايامه مجاهدا فى صقلية وايطاليا ، عسى الله يغفر له ما تقدم من ذنبه ؛ فدخل سوسة فى ثوب مرقع علامة الزهاد ؛ وسار منها على رأس جند قوي ، فنزل بالرمة وباشر هجومه العنيف .

احتلال طبرمين — كانت طبرمين يومئذ امنع مراكز الروم واعز قلاعهم بعد سقوط سرقوسة ؛ وكان الروم يوالون ارسال المدد لها دون انقطاع عساها تكون يوما ما مبعث الموجة المقدسة التي ترجع صقلية تحت حكم الصليب القسطنطيني الرومي .

هاجم ابراهيم المدينة المحصنة بخيله ورجله ، والتحم مع رجال الروم فى معركة هائلة ، دارت رحاها بشدة لاعهد للفريقين بها من قبل ، ورأى المسلمون شدة النصارى فى الدفاع عن مدينتهم ، فاخذت ريح الفشل تهب بين صفوفهم، لكن ابرهيم تغلب على الموقف بحزم نادر ، فجمع جموع المسلمين وقرأ القارئ بين يديه قوله تعالى : هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم؛ يصهر به ما فى بطونهم والجلود؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب واؤلؤا ؛ ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد » فعادت الثقة الى نفوس المؤمنين وهبت عليهم رياح الجنة فانقضوا على اعدائهم كالصواعق النارية وانهزم الروم امامهم فاخذوا يتتبعونهم بين وهاد الاودية واعالى الجبال فقتلوا اكثر المدافعين وتفرق الباقون شذر مذر واصبحت مدينة طبرمين مفتحة الابواب دون مدافع فدخلها ابراهيم مع جماعة المسلمين وغنم جميع ما كان الروم قد اعدوه بها من كنوز وسلاح وعدد للقتال

ولقد كان لفتح المسلمين لهذا المعقل المنيع اسوأ وقع في العالم المسيحي اهتزت له البلاد الرومية باسرها واعلن الامبراطور في القسطنطينية الحداد سبعة ايام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك .

فتح رمطة — لم يترك ابراهيم للروم وقتا يرجعون فيه من ذهولهم اثر نكبة طبرمين ، فسار تواً يقصد مدينة رمطة ، وهى معقل آخر للروم شرقي الجزيرة ، يقع جنوبي طبرمين ؛ ويتكون منه ومن قطانية آخر ما بقي للروم فى تلك الانحاء

هاجم المسلمون رمطة ، والروم لا يزالون يالمون من ضربة طبرمين ، فلم

يستطيعوا بهذه المدينة ثباتا وانهارت سريعا ، فدخلها ابراهيم ومن معه وغنموا سائر ما فيها من مال ومتاع .

في ايطاليا — لم يبق يومئذ بصقلية ما يشبع نهم الامير ابراهيم فجمع جموعه القوية ، وركب البحر مجتازا الى ارض قلورية ، وكان يقصد يومئذ الصعود منها الى الارض الطليانية ، ومنازلة دولة نابولي ؛ فاخترق بجموعه شبه الجزيرة القلورية ؛ ووصل فى شمالها الى الحد الذي يفصل بينها وبين ممتلكات نابولي ؛ وكانت هنالك قلعة كسنتة Cosenza المنيعة فخيم حولها ونصب عليها الحصار ؛ وامعن في التضييق عليها .

اشتد به المرض يومئذ ، فاسلم روحه لخالقها ؛ يوم السبت ١٨ من ذى القعدة سنة ٢٨٩ ( اكتوبر ٩٠٢ ) .

لم يعلم اهل كسنته بموت الامير ؛ فارسلوا وقد ضاق عليهم الخناق يطلبون الامان والتسليم ، فامنوا ؛ وقبل استسلامهم ، ونقلت جثة الامير ابراهيم الى بالرمة فدفن هنالك وبني على قبره قصر .

سيرة ابراهيم بن الاغلب — ولي ابراهيم ملك القيروان ، وهو لا يبلغ من العمر الا ١٤ عاما ؛ ومات مجاهداً في ايطاليا وسنه ٤٢ سنة ، فكانت مدة ولايته ٢٨ سنة ، ارتكب اثناءها من الفظائع والآثام ما قضى به على الملك الاغلبي وكان اعظم ممهد للسبيل في وجه الدعوة الفاطمية الناشئة .

ارى ، وقد ازفت الساعة التى ستنهار فيها الدولة الاغلبية ويتغير وجه الخريطة السياسية فى الشمال الافريقي وفى صقلية ؛ ان انقل لك صفحة عن سيرة هذا الملك الطاغية الجبار حتى يتبين لك كيف يمحو الظلم آثار الدول وكيف تعمى القلوب التي فى الصدور ، فتسير مع اغراضها وشهواتها غير حاسبة حسابا لما يحدق بها من الاخطار .

قال ابن الاثير عن هذا الامير ، ولعله يصفه بذلك عندما ابتدأ ممارسة الحكم غلاما او عندما تاب توبة الافلاس قبيل موته : وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والاحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف املاكه جميعها وكانت له فطنة عظيمة باظهار العملات »

هذه الصورة غالطة لا تمثل لك شيئا من ابراهيم الجبار الذى كان السبب الاصلي في انهيار الملك الاغلبي ؛ اما ما اتفق عليه المؤرخون في شأنه فقد لخصه تلخيصا بليغا مؤرخنا التونسي العظيم احمد بن ابي الضياف ، مستمداً معلوماته من اعمال الاعلام لابن الخطيب ومن غيره ؛ واليك ما يقوله ابن ابي الضياف :

« وكان ابراهيم هذا قد ابتدأ امره بحسن السيرة وسلوك ما يحمد اثره ، ثم انقلب الى ضد ما كان عليه وانسلخ من الخلال الحميدة شأن الدول قبيل الانقراض فساءت ظنونه وتغيرت اخلاقه وفسد فكره واسرف فى القتل ؛ وفى سنة ٢٦٨ فتك باهل الزاب فقتلهم وقتل اطفالهم والحاقهم فى الحفر ؛ وفى سنة ٢٧٧ قتل حاجبه نصر بن الصمصامة بعد ان ضربه خمسمائة سوط فما تحرك ولا نطق بكلمة ثم امر بضرب عنقه ، فقال الحاجب لمن حوله : لاتظنوا انى افزع من الموت ووعدهم انه يفتح كفه ويضمها ثلاث مرات بعد ضرب عنقه ؛ ففعل . الخ

«وفيها قتل من اهل افريقيا عددا مستكثراً منهم القاضى عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيان عزله وحبسه ثم سمه ومنهم اسحاق بن عمران المحتسب قتله وصلبه ومنهم حاجبه فتح ضرب بالسياط حتى مات ومنهم فتيانه من الصقالبة وسبب ذلك انه كان له اذن صاغية لاقوال المنجمين والمتخرصين على الغيب وكانوا يقولون له انه يقتله رجل ناقص وانه يمكن ان يكون فتى فكان اذا رأى احداً من فتيانه فيه نشاط وحدة يتقلد سيفا قال هذا صاحبي فيقتله ولما قتل منهم جماعة خافهم وافضى به ذلك لقتل جميعهم ، واستخدم عوضهم فتيان السودان ثم عرض له منهم

ما عرض للفتيان الصقالبة فقتلهم اجمعين ؛ وقتل ابنه المكنى بابي الاغلب وضربت عنقه بين يديه وسبب ذلك انه نمي اليه ان محمد المنجم قال لأبنه انه يلي الملك ، ثم امر باحضار المنجم فقتله وقتل اخوته وكانوا ثمانية ، ومن هناته انه افتقد منديلا كان يمسح به فمه ، وقد سقط من يد بعض جواريه فالفاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ؛ ومنها انه كان يقتل بناته ، فكانت امه اذا ولدت له بنت من احدى جواريه اخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرية فقالت له يوما وقد رأت منه رقة : يا سيدي قد ربيت لك وصائف قال نعم ؛ قالت اتراهن فقال نعم ؛ فزينتهن وادخلتهن اليه فاستحسنهن ؛ فقالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى اتت على آخرهن ، فلما خرج قال لخادم له اسود كان سيافا يقال له ميمون : امض وجئني الآن برؤوسهن فتوقف استعظاما لذلك ؛ فقال له امض ويلك والا قدمتك قبلهن ، ولما دخل على امه كبر ذلك عليها فقالت له راجعه ؛ فقال لها لا سبيل لذلك ، ووقفن على ما يراد بهن فصحن بالبكاء وقلن للسياف ياسيدى وما الذى اذنبنا اما ترحمنا فلم يغن ذلك شيئا ، فقطع رؤوسهن ، ينظر بعضهن إلى بعض وجاء إليه بها معلقة بشعورهن ، فوضعها بين يديه (١) . قال لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام عندما ذكر هذه القصة الفظيعة ما نصه : قلت اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يتعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك ، اه . وكان من كتابه الأديب البارع العالم احمد القديدى ، فقربه وجعل اليه امور كلها ، ثم سخط عليه فسجنه فخاطبه من محبسه برسالة بديعة تلين القلوب القاسية ( هنا ذكر ابن ابى الضياف

---

(١) من المحتمل ان تكون الدعاية العبيدية الفاطمية قد بالغت فى وصف فظائع ابن الاغلب ، واعتمدت على الاصل فاضافت لها اساطير لتسود نهائيا صفحته ، ولتتمكن من القضاء المبرم على دولته .

نصها ، وهي طويلة ، لاموجب لذكرها ، وان كانت من آيات الفن ، ختمها بقوله :

هبني اسأت فاين العفو والكرم ... قد قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الايدي اليه اما ... ترثي لمن قد بكاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر ... ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فوقع بجهله وطغيانه تحتها : ان الملوك اذا ما استرحموا قتلوا . ووضعه في تابوت حتى مات جوعا وعطشا .

« وبقي ابراهيم فى تونس يبدد شيعته وانصاره بالقتل ، وثار الداعى الى الدولة العلوية العبيدية تاكل اطراف مملكته . وكان قد اتخذ جند بلزمة(١) ، واصطفى من ابطالهم سبعمائة رجل ، واعتضد بهم فى حراسته ، ثم بعث اليهم ابنه فى جند وقتلهم بتمامهم . وكان ذلك اقوى الاسباب فى انقراض دولة بني الاغلب ، وذلك ان اهل بلزمة من العرب من ابناء المغرب ، والجند الداخلين الى افريقيا عند افتتاحها ، واكثرهم من قيس ؛ وكانوا شجى فى حلق كتامة من البربر القائمين بالدعوة العبيدية ، فلما قتلوا استطالت كتامة ووجدت السبيل الى حل عرى دولة بنى الاغلب ؛ ومن اتبع هواه ، اعطى عدوه مناه ، وسوء الراى اشد المحاربين .

« وثار على ابراهيم اهل تونس والجزائر والاربص وباجة وقمودة ، وقدموا على انفسهم رجلا من الجند ؛ فانتقل ابراهيم الى رقادة وحصنها ؛ والجرأة على سفك الدم انذار بزوال الملك » انتهى ما نقلناه عن ابن ابى الضياف رحمه الله وارضاه

الدعوة الشيعية — في هاتيك الاثناء ، والدولة الاغلبية تسبح في بحر من الدماء قدم من المشرق ، داعي الشيعة الاسماعيلية ابو عبد الله الحسين بن احمد ونزل بفرجيوة من ارض كتامة ؛ واخذ ينشر الدعوة المهدي المنتظر من ابناء فاطمة البتول ويبشر الناس بقرب ظهور المهدى الذى يملا الارض عدلا بعد ما

(١) قرية على ٢٧ كيلو مترا فى الشمال الغربي من مدينة باتنة .

ملئت جورا ؛ فالتفت حوله كتامة المتعطشة للحكم الناقمة على الدول الهرمة التي كانت تقتسم يومئذ ارض الشمال الافريقي : دولة الاغالبة في الشرق ودولة الرستميين فى الوسط ودولة بني ادريس في الغرب ، واخذ يدعو جهارا لعبيد الله المهدى ؛ ويجمع الناس حول مذهب الشيعة الاسماعيلية العلوية ؛ فلقيت هذه الدعوة نجاحا يفوق حد التصور كأن البلاد كانت تنتظر الحاكم الحقيقى الذى يوحد صفوفها ويجمع كامتها ويرفع فوقها لواء العدل والحكم النزيه وخاصة ان الدعوة لآل علي وابناء فاطمة كانت تصادف هوى فى النفوس وكان الناس يأملون على يد احفاد محمد صلى الله عليه وسلم اصلاح الحال ورفع المظالم واعلاء كلمة الله .

قال مؤرخنا الكبير احمد بن ابى الضياف فى شان الشيعة الفاطمية : ولا يظن فى القوم انهم من الغلاة المدحوض غلوهم عند ائمة الشيعة ، كما لا يظن بهم انهم ممن يكفر الصحابة رضي الله عنهم ؛ وقصارى امرهم تفضيل علي على الشيخين مع اعتقادهم صحة امامتهما عند جدهم سيدنا علي ؛ حيث قبل جارية من سبي عمر وهي الحنفية واولدها ابنه محمد ، ويستندون فى هذا التفضيل الى احاديث لم يوافقهم على المراد بها اكثر اهل العلم ، ولهم نزغات يستندون فيها الى ما يؤثر على بعض اهل البيت وانكار العلماء عليهم من حيث البدعة ؛ واهل افريقيا يدينون بحب علي وآله يستوى فى ذلك عالمهم وجاهلهم ، جبلة في طباعهم حتى ان نسوانهم عند طلق الولادة ينادون : يا محمد يا علي . الى ان يقول : وقوة المحبة لآل البيت مع الاعتراف بالفضل والمحبة لغيرهم ليس من الرفض في شيء ، والله يقول : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ولا يخلو مسلم من هذا الحب ، ورحم الله الشافعى اذ يقول :

ان كان رفض حب آل محمد  فليشهد الثقلان انى رافضي

كان عبيد الله المهدى قد وقع بين يدى الاغالبة فسجن ، وكان عبدالله بن

الحسن الصنعاني يجمع الجموع ويجيش الجيوش ويستولى على أطراف البلاد معتمداً على سواعد كتامة وحرابهم الشديدة ، فدانت له البلاد دون مقاومة تذكر ، حتى وقف وراءه مئات من الالوف ، يستعد للوثبة النهائية وتحطيم دولة الاغالبة التي حطمها ابراهيم الآنف الذكر قبل ان يحطمها اعداؤه :

انهيار الدولة الاغلبية — خلف ابراهيم السفاح ابنه الذى كان كما اسلفنا يمثله فى صقلية ، فكان شهما عالي الهمة سديد النظر اراد اصلاح الحالة ورتق ما امعن ابوه في فتقه ولقد كاد ينجح وكادت الحالة تستقيم لولا ان القضاء قد حم ، وآذنت ساعة الزوال على يد شقي كتب الله عليه ان يكون هو النقطة السوداء التي تختم صفحة ناصعة ؛ ذلك هو زيادة الله الحقير .

استولى ابو العباس عبد الله ملك القيروان ، فارسل بابنه هذا زيادة الله ليمثله فى صقلية ، وليقوم على امر الجهاد والادارة فيها ؛ فما كانت ايامه هنالك سوى الاضطراب والخراب ، وقد وصلت دعوة الشيعة هاتيك الاصقاع ، واشرأبت لها الكثير من النفوس ، واخذ الناس يتفرقون شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . أما زيادة الله الخبيث ، فقد قابل كل ذلك بمجالس لهو وخلاعة وشراب ، كان يعقدها بقصره فى بالرمة ، الى ان بلغ الارتباك درجة اضطرت ملك القيروان لاستقدام ابنه المفسد من صقلية ، فالقاه مسجوناً مقيداً داخل داره .

اخذ هذا الشقي يستميل خدام ابيه اليه ، فتواطأ مع غلامين منهما ، ترصدا لابيه حتى نام ، وهما على حراسته فاحتزا رأسه وذهبا به داميا فرميا به بين يدى الابن النذل وفكا قيوده فنادى بنفسه ملكا وأخذ البيعة العامة فى شعبان سنة ٢٩٠ وبادر بالغلامين قاتلى ابيه فمثل بهما وقتلهما شر قتلة دفعا لتهمة التواطيء معهما على ذلك .

وقد رأى ان الخرق الفاطمي قد اتسع على الراقع وعلم ان لا قبل له بدفع تلك

الكارثة الا باعتماد على الخليفة العباسي المكتفي بالله عله يرسل له جندا يعينه على دحرفوى الصنعاني المخيمة على اطراف المملكة . فارسل للخليفة هدية فيها نفائس كثيرة منهاعشرة آلاف دينار زنة الواحد منها عشرة مثاقيل وقد كتب على وجهها:

يا سائراً نحسو الخليفة قل له ... ان قد كفاك الله امرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيـ ... ـف الله من دون الخليفة سله
ما ينبري لك بالشقاق منافق ... الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فالله قد ... اعماه عن سبل الهوى واضله

ولو انه جهز بذلك الذهب العزير جنداً ، واصطنع به رجالا لكان ذلك اجدى للملكه وانفع لأن انتصابه مدافعا عن خلافة العباسيين دون دعوة الفاطميين لم تجده نفعاً ، فان عبدالله الصنعانى قد وثبت وثبته النهائية فكانت معركة الاربص الهائلة التي تفرق فيها جيش الاغالبة بعد ان مات اكثرهم وذلك سنة ٢٩٠ فجمع زيادة الله ، او نقصان الله ما استطاع جمعه من مال ومتاع ؛ وشد رحاله الى المشرق تاركا ملك الاغلب يبكي من بناه ، فاقام بمصر ينتظر مدد الخليفة وينتظر تنفيذ عامل مصر اوامر الخليفة ولم تكن حالة مصر يومئذ ازهى ولا ازهر من حالة افريقيا فبعد ايام قضاها زيادة الله فى القدس الشريف يلهو ويلعب ويعبث ويطرب قبض الله روحه الشقية بالرملة سنة ٣٠٣ (١)

---

(١) كانت الحرب حامية الوطيس في بلاد الاندلس بين الملك اردونيو ؛ الذى جمع شتات البلاد المسيحية هنالك وتصدى لحرب المسلمين وبين الخليفة عبد الرحمان الثالث ؛ فاندحر عبد الرحمان اول الامر ثم اعاد الكرة فانتصر واحتل طليطلة ثم انكسر ثانيا سنة ٣٠٦ وعقد هدنة لثلاثة أعوام ؛ فلما انقضى اجلها وكان قد جمع جنداً عتيداً هاجم المملكة الاسبانيةفشتت شملها ودحر جندها واستولى على بلادها واندفع وراء جبال البيرنات فى فرنسا .

وهكذا انهارت دولة بني الاغلب العتيدة التى كانت من اغرب ممالك المسلمين واكثرها مدنية ونظاما واحسنها جهاداً وامعنها عمرانا .

قال فيكتور بيكي فى كتابه الآنف الذكر : مدنيات الشمال الافريقى « لولا ان الاغالبة جعلوا الى جانب خلالهم العسكرية الانهماك في الملذات والشهوات لاستطاعوا ان يمدوا في اجل تفوق العنصر العربي بهذه الديار ؛ لكنهم سقطوا تحت عنف الضربات البربرية الواردة من ناحية المغرب ، وكان بسقوط الاغالبة سقوط النفوذ العربى ، وانهيار السنة تحت موجة الشيعة الظافرة . »

العبيديون بالقيروان — دخل ابو عبد الله الصنعاني مدينة القيروان ظافرا منصورا وكان عبيد الله سجينا مع ابنه ابى القاسم فى مدينة سجلماسة عند اميرها فخرج علماء المدينة واهل العقد والحل فيها للقاء الصنعاني وهنؤوه بالنصر والفوز وسالوه لمن يخطبون فى صلاة الجمعة فلم يعين لهم احدا لانه لم يكن يعلم مآل عبيد الله انما امرهم بالدعاء لمن نصر الدين . واعلن ابوعبد الله الامان العام للناس فى اموالهم واعراضهم وحرياتهم وصادر اموال زيادة الله الاغلبي الهارب وحفظ سلاحه وجواريه ثم نقش على النقود من وجهها الايمن بلغت حجة الله ومن وجهها الآخر تفرق اعداء الله ونقش على الاسلحة عدة فى سبيل الله ووسم الخيل الملك لله .

ثم استخلف اخاه على القيروان ونهض في وثبة جريئة الى سجلماسة بالمغرب الاقصى فاخرج من السجن الشريف عبيدالله وجاء به مبجلا مكرما وهو يمشي بين يديه حتى ادخله القيروان ثم سار به الى قرية رقادة التى كانت يومئذ (فرساي) تونس وفيها قصر الملك الاغلبي الذى كان آية من ايات الفن والجمال وهنالك فى ربيع سنة ٢٩٧ بايعه العلماء والفقهاء وخاصة الناس وعامتهم وكان عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق يبلغ من العمر ٣٧ سنة مهيب الطلعة عالما شجاعا كأنه خلق ليكون رأس دولة وزعيم ملك ، وكل ميسر لما خلق له .

تأسيس المهدية — لم يطب المقام لعبيد الله المهدي بقصر رقادة ووجد ان القيروان البعيدة عن البحر لا تصلح عاصمة لدولة وضعت بالمغرب اقدامها الثابتة ، ورمت الى المشرق بانظارها الطامعة ، وقد رأت من اختلال امر الدولة العباسية ومن وهن امرائها بمصر الذين يطيعونها اسماً ويستبدون بالامر فعلا ، ما جعلها تستعد وتتمرن فى الاستعداد للوثوب على تلك الاصقاع محاولة جمع كلمة العالم الاسلامى من جديد تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني فاطمة ؛ كما حاول من قبل تلك المحاولة الذين تولوا كبر تحطيم الدولة الاموية ؛ لجمع الامة تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني العباس .

طاف المهدى بنفسه على رأس حاشية مختارة ، سائر السواحل الشرقية التونسية من قرطاجنة الى الجنوب ، فاختار الموقع البديع فى الساحل الذى امر بان تبنى فيه المدينة الجديدة التى تحمل الى الابد اسمه « المهدية » فابتدأ البناؤون فى العمل سنة ٣٠٠ (١) وانتهوا منه سنة ٣٠٨ ، فانتقل اليها برجاله وامواله وجنوده وسكنها معه اصحاب الدولة واعيان القوم ، فاصبحت مدينة من ازهى وازهر مدن المسلمين .

## محمد السرقوسى

بعد هذه البسطة الوجيزة عن انهيار الدولة الاغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وسنرى آثار هذا الانقلاب العظيم فى جزيرة صقلية ؛ نعود الآن لحوادث الجزيرة اثناء هذا العهد المضطرب .

---

(١) فى هذه السنة تولى الخلافة ببلاد الاندلس عبد الرحمان الناصر ، وهو اول من لقب بالخليفة هنالك ، واندفع فى ميدان الانشاء والتكوين ؛ فاختط مدينة « الزهراء » البديعة واتخذها دار ملكه ؛ وانشأ في قرطبة وغيرها عدداً جسيما من الابنية والقصور والبساتين ودور الصناعة ؛ واصبحت فى ايامه قرطبة كعبة العالم يقصدها طلاب العلم من كل صقع .

بعد موت ابراهيم بن الاغلب المجنون ، محاصراً مدينة كسنته ، استولى ابنه وممثله بصقلية ، ابو العباس ملك القيروان ، فارسل ابنه زيادة الله ممثلا له بالجزيرة فخلا الى اللهو والطرب والشراب حتى استقدمه ابوه وحبسه وكان من امره ما رأيت فى الصفحات السالفة اذ قتل اباه وانتصب في القيروان ملكا ، كتب الله عليه ان يسجل التاريخ له انهيار دولة بنى الاغلب على يديه .

كما محمد السرقوسي ابرز ولاة هذا العهد المضطرب ، وقد حاول ، ونجح فى بعض الاحيان تسكين الثائرة وتهدئة الخواطر وجمع الكلمة ريثما تسفر حالة افريقيا عن امر ؛ وتوفاه الله اليه سنة ٢٩٠ .

# علي بن محمد بن ابى الفوارس

## واحمد بن ابي الحسين بن رباح

اولى الناس امرهم علي بن محمد ودانوا بطاعته ، ورجوا ان يتمكن من انجاز عمل محمد السرقوسي فى تمهيد الامن وجمع الكلمة ، وراسلوا امير القيروان زيادة الله في ذلك فامتنع من المصادقة وارسل من قبله واليا على صقلية الامير احمد بن ابي الحسين فما قبله اهل الجزيرة الاعلى مضض ، وان كان قد عمل اثناء ولايته على حفظ الجزيرة وصيانتها ضد كل اعتداء من الخارج وضد محاولات الفوضى من الداخل .

عندما بلغ اهل صقلية نبأ انهيار دولة بنى الاغلب وفرار زيادة الله آخر ملوكها ؛ ثاروا بالامير احمد بن ابي الحسين فحبسوه واعادوا للولاية على بن محمد وذلك يوم ١٠ رجب ٢٩٦ (٩٠٨) وراسلوا ابا عبدالله الصنعاني داعية المهدي يطلبون اليه المصادقة على الوالي الجديد ويعلنون الانضمام للدعوة الفاطمية والقيام بامرها ، فصادق ابو عبدالله على ذلك وراسل الامير الجديد يقره على عمله ويوصيه بالتقوى والجهاد والثبات فى سبيل الله . لكن ايام هذا الوالي لم تدم طويلا ، اذ

ان العبيديين ما صادقوا على توليته الا بصفة مؤقتة ريثما يستتب لهم الامر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والانقياد ، فعندما تم لهم ذلك استقدموا احمد بن ابى الحسين وامروه بان يستقر في رقادة ولا يبرحها ، وارسلوا من قبلهم اول ولاتهم نحو الجزيرة وهو الحسن بن احمد .

فتكون ايام الحكم الاغلبي بجزيرة صقلية ؛ منذ افتتاحها على يد اسد بن الفرات سنة ٢١٢ ، الى يوم اعلنت الجزيرة اعتناقها دعوة الفواطم سنة ٢٩٦ ؛ ٨٤ سنة ، مضت كلها في جهاد شريف ونضال عنيف وتمهدت فيها سبل الامن واستقرت الراحة فى المدن والقرى ، ولم يكن الاضطراب الذى ساد آخر الايام مانعا الناس عامتهم وخاصتهم من انجاز اعمالهم العمرانية التمدينية ، فكان الخلاف حول الحكم والولاية يكاد يكون خاصاً ببعض الطبقات ؛ اما بقية الناس فكانت دائبة على اشغالها قصاراها من امور الدولة انها تجد دائما القاضي النزيه الذى يفض مايقع بين الناس من مشاكل وتدفع زكواتها بنظام لممثل السلطة مهما كان اسم متولى الامر .

لوحة رقم (٥) نموذج من التربة الصفراء الحمراء

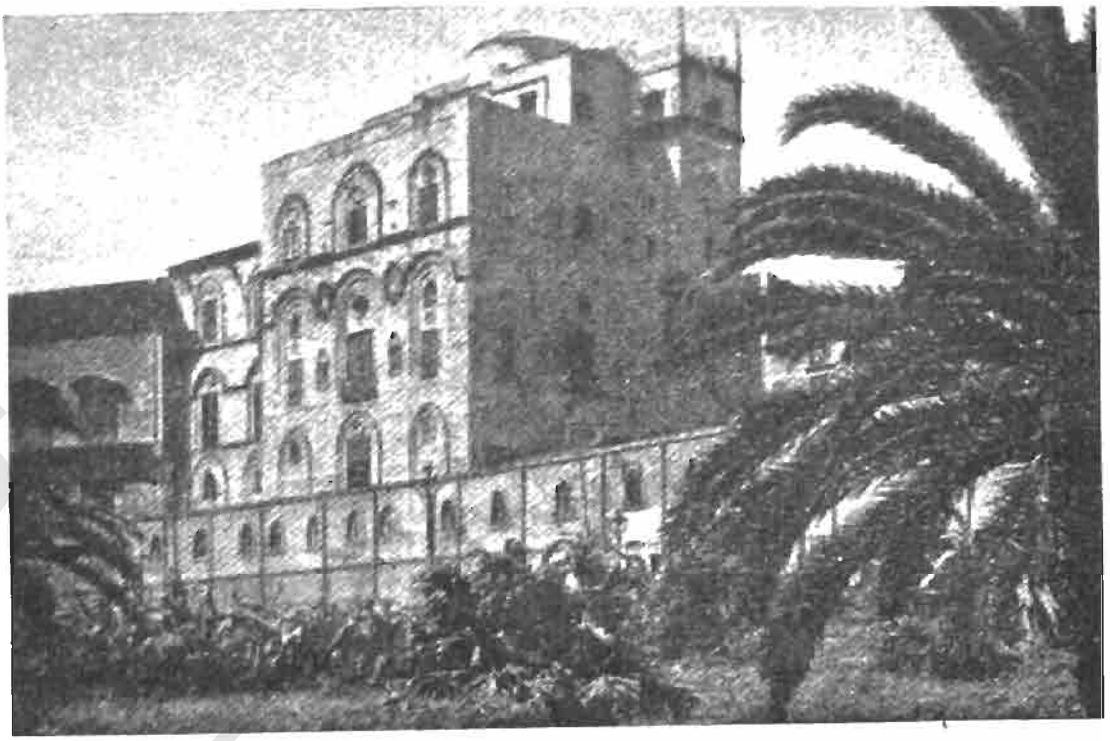

القصر الملـكي ببالرمة من الخـارج

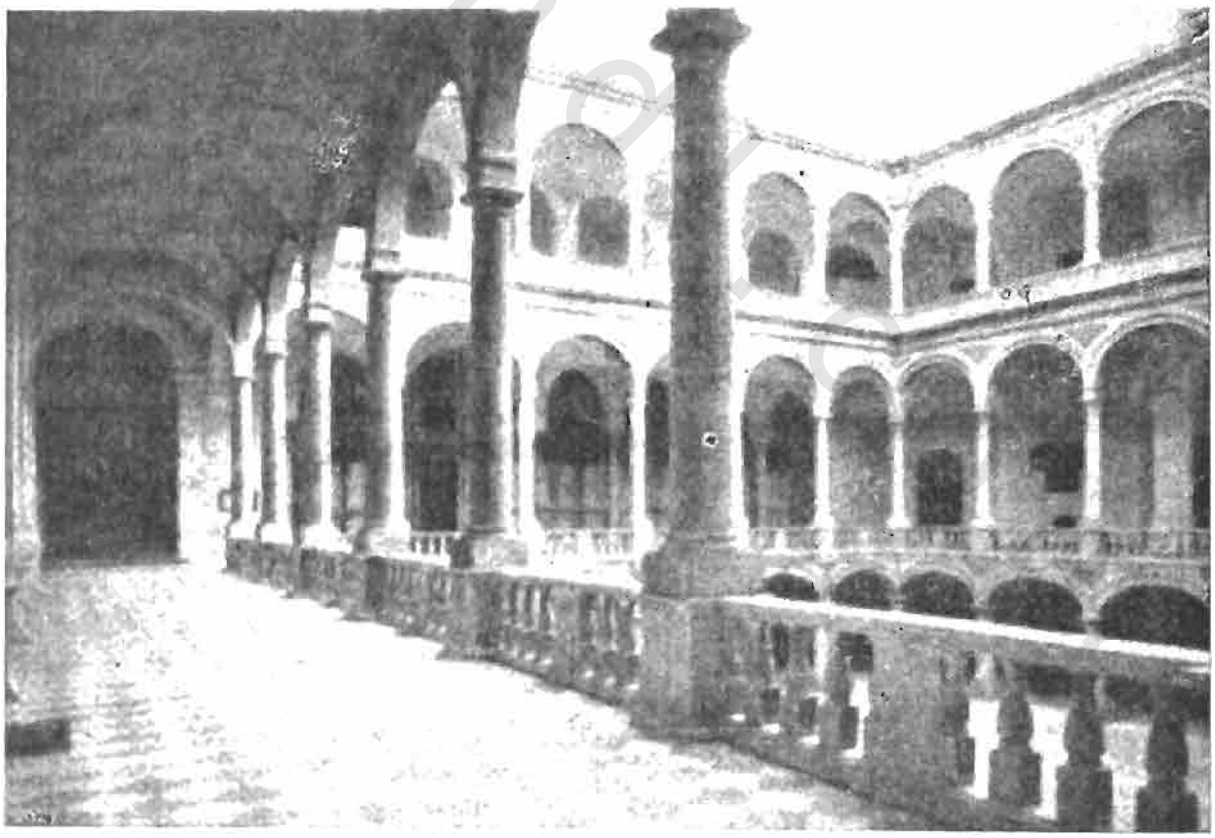

القصر الملـكي ببالرمة من الداخل

كاتدرائية مدينة بيزا الشهيرة في قسمها الشرقي والأوسط

الملك رجار الثاني

فسيفساء تمثله واحد القديسين يضع على رأسه تاج الملك

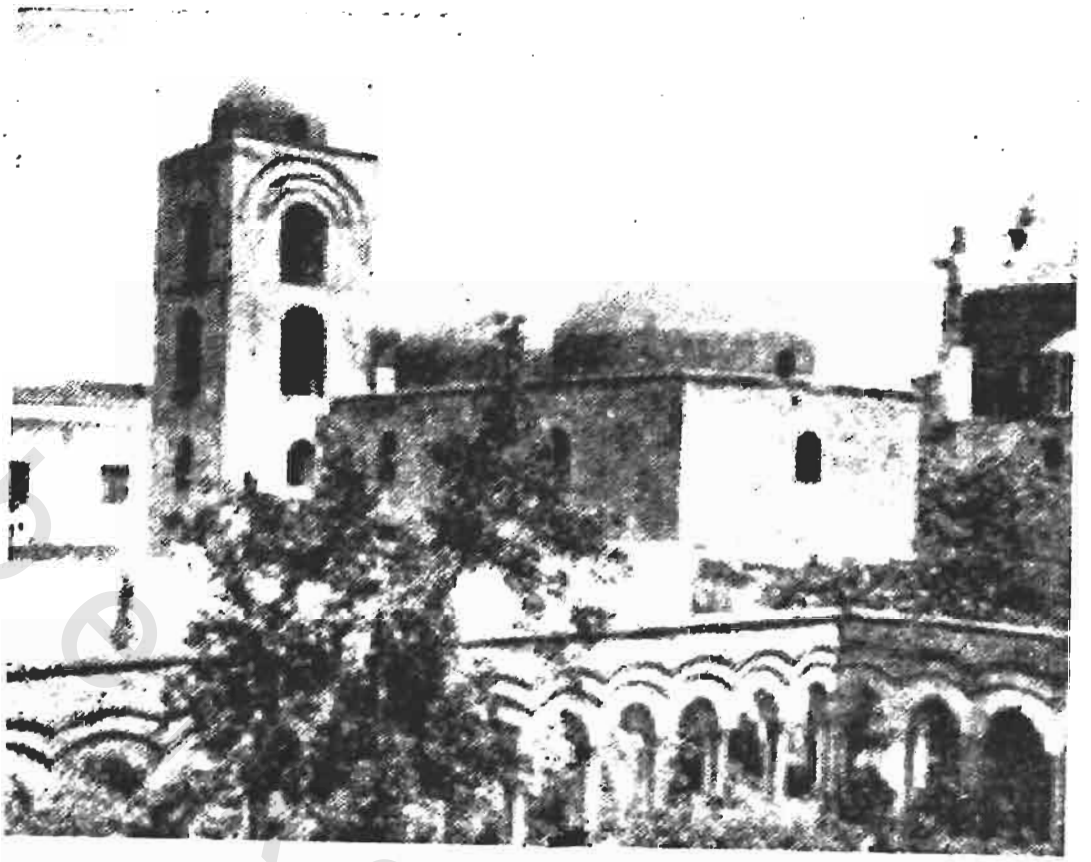

كنيسة القديس يحنا

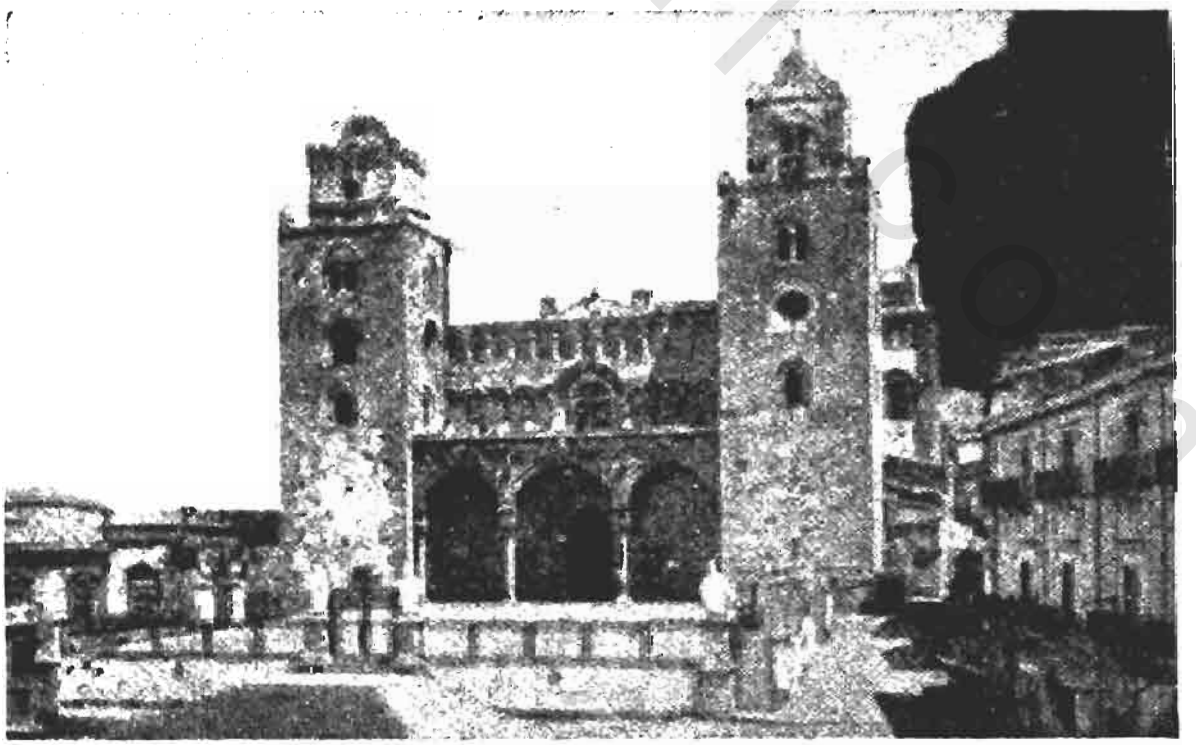

كاتدرائية سيفالو

Bibliotheca Alexandrina

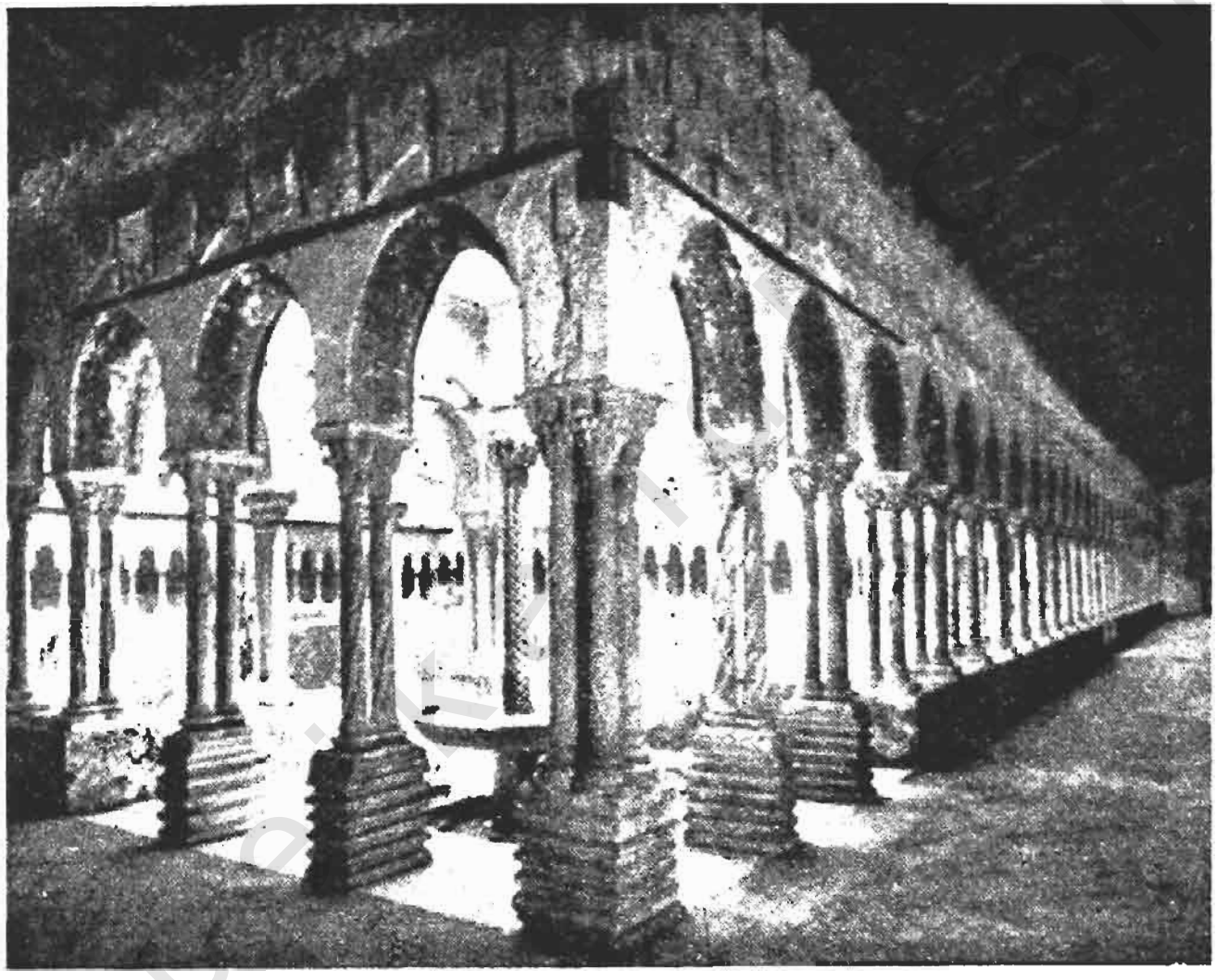

دير الموزيال

كتدرائية الوفيدال

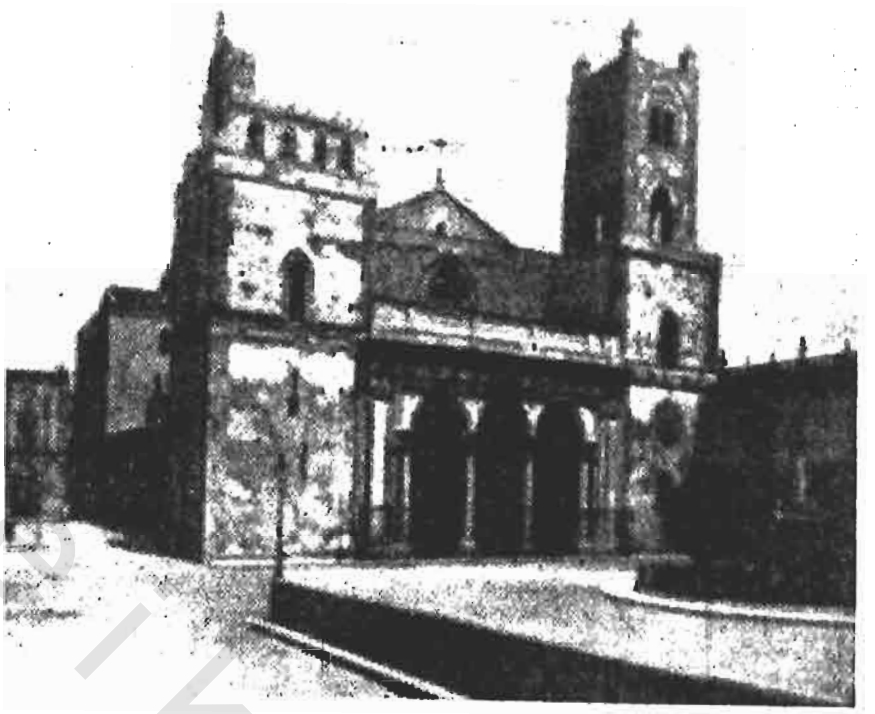

منظران خارجيان للكاتدرائية مونريال

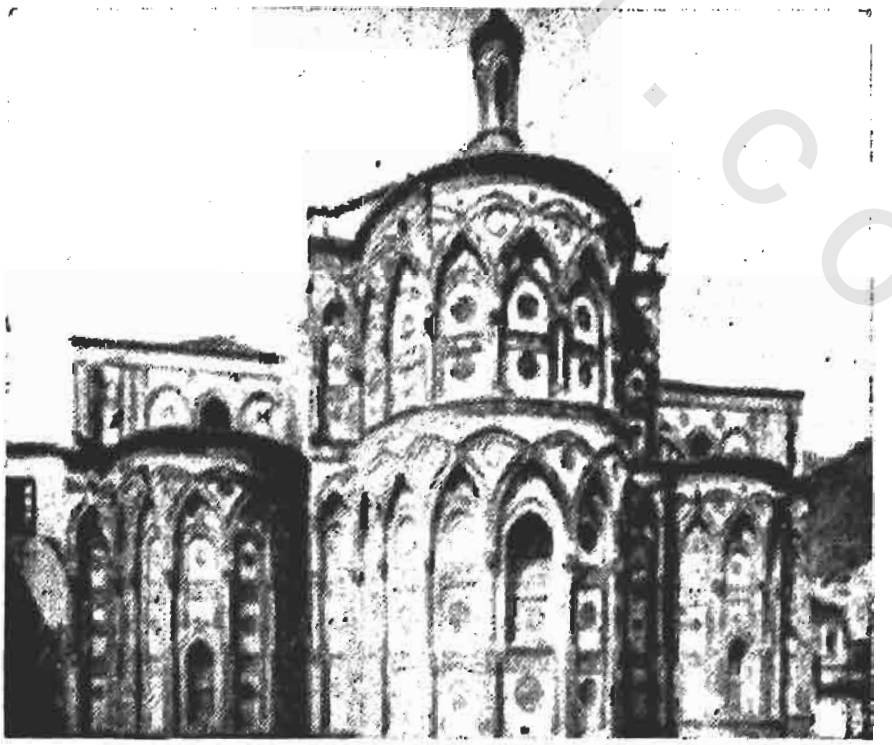

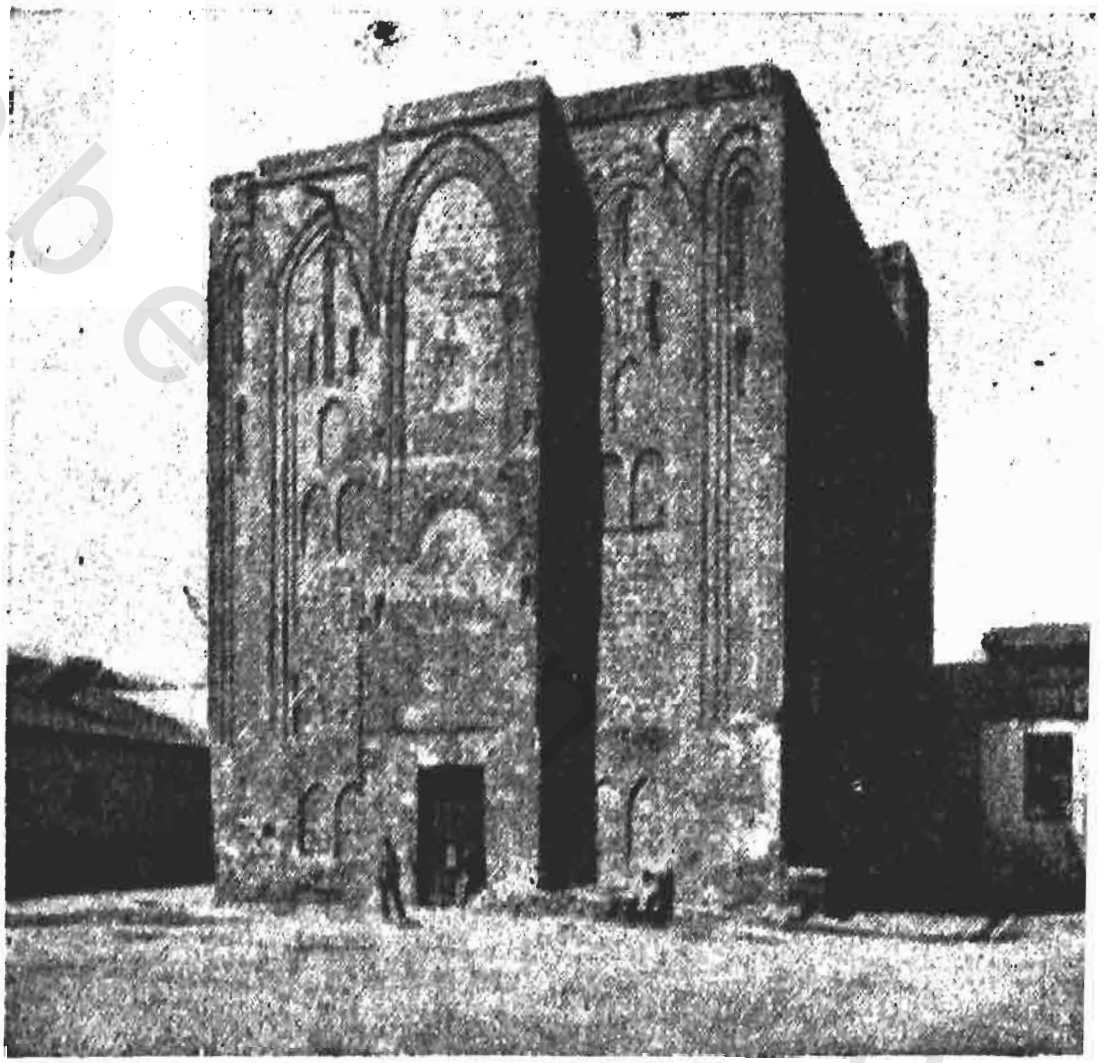

قصر القبـة

من آثار المسلمين بضـواحي بالرمـة

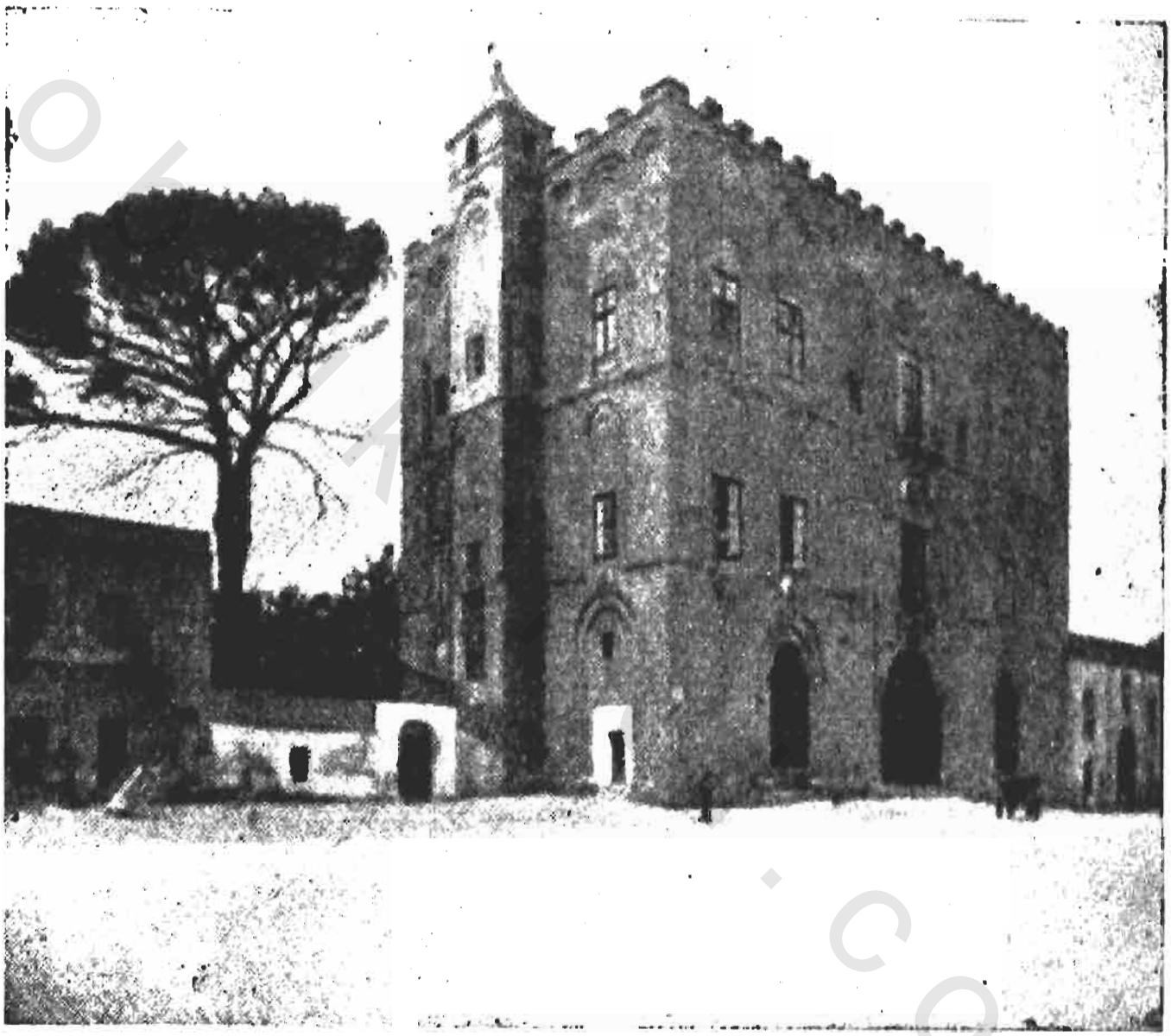

# LA ZIZA

قصر العزيز

من آثار المسلمين بضواحي بالرمة

فسيفساء من صنع المسلمين بقصر العزيز

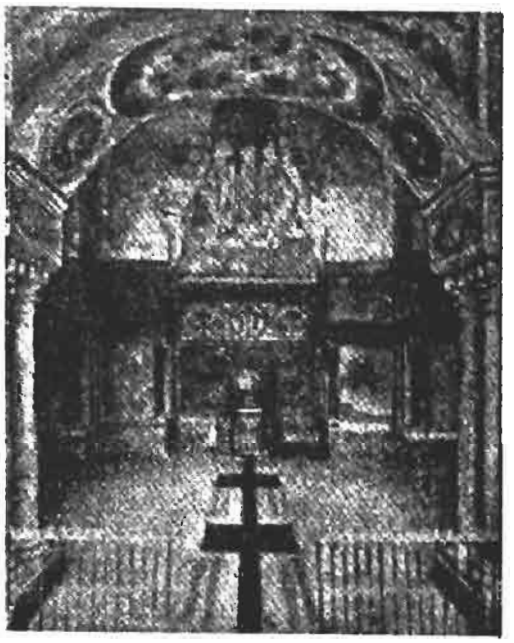

القاعة الكبرى

بقصر العزيز

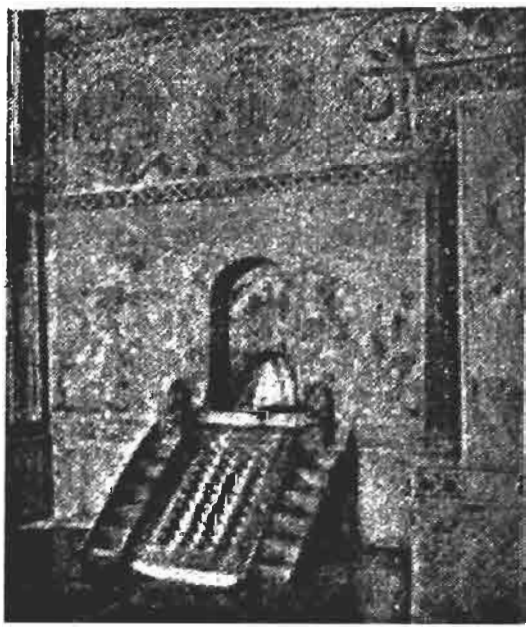

العين الجارية بالقاعة

الكبرى بقصر العزيز

obeikandl.com

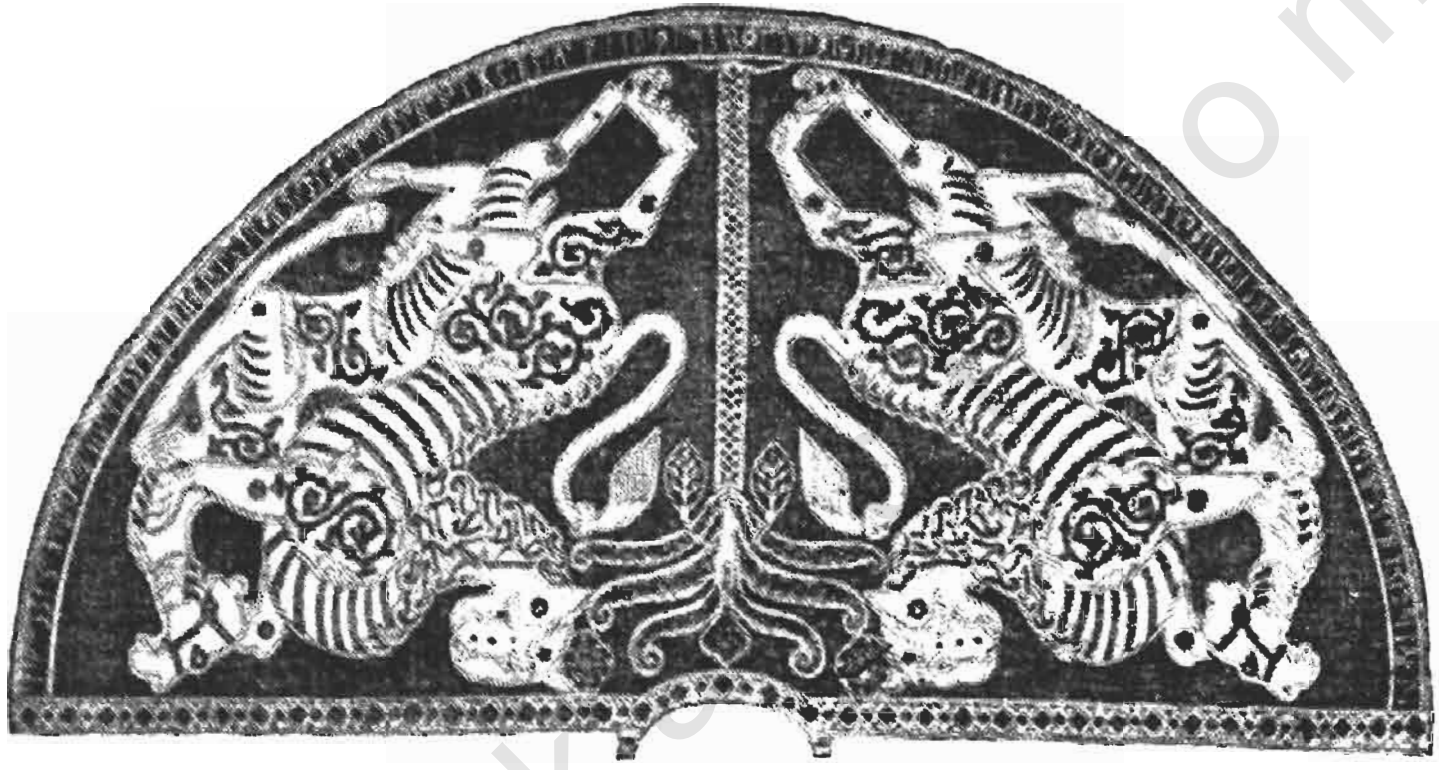

« رداء حريري» رسم فيه نمر يفترس جملا، وحوله كتابة كوفية ، تشير الى انه صنع سنة ٥٢٨ هجرية للملك رجار الثاني ،وكان ملوك النرمان و اباطرة الالمان بعدهم يرتدونه فى حفلة التتويج وهو محفوظ بمتحف مدينة نورنبرغ وصنعه على نمط صنع « العجار التونسي . »

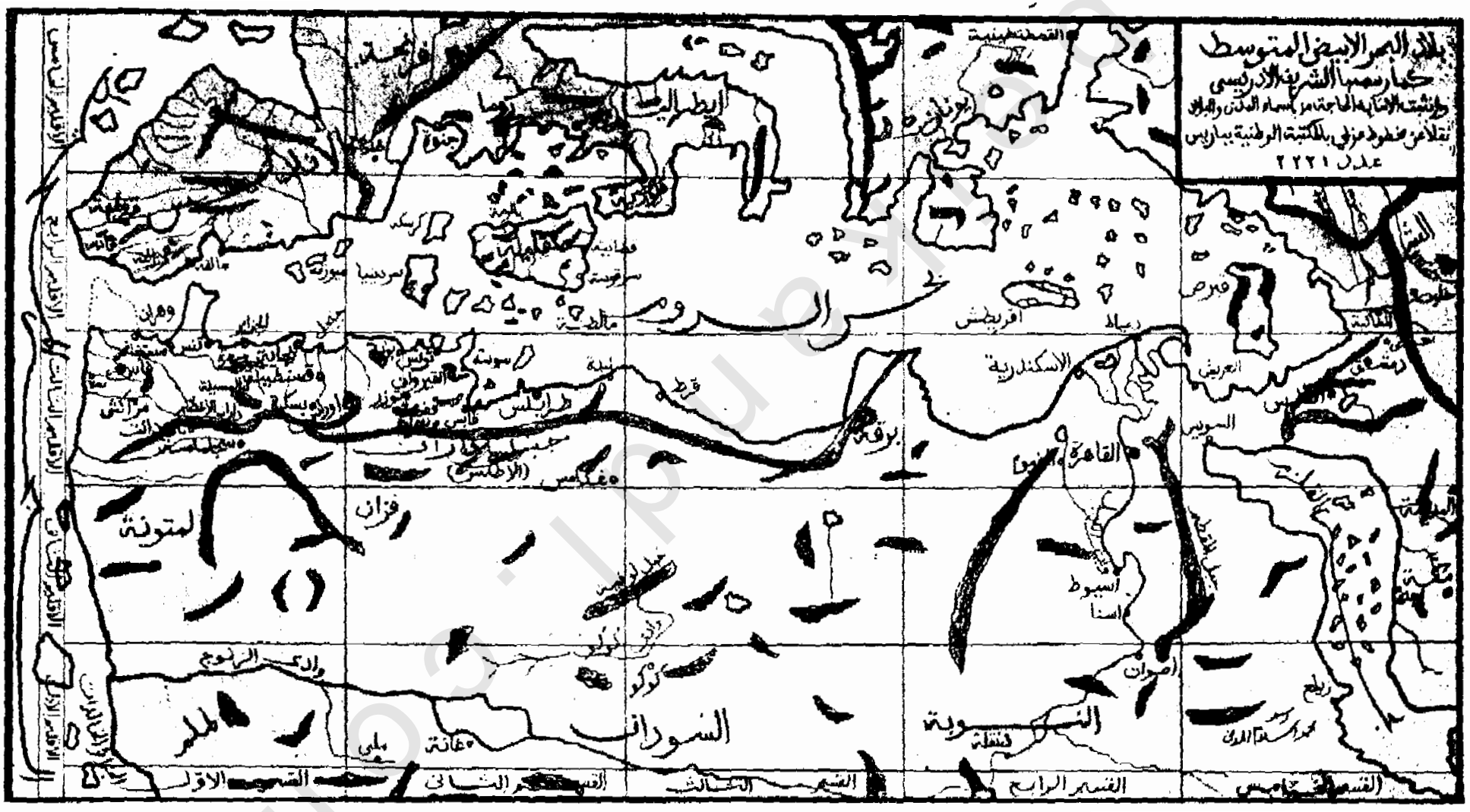
بلاد البحر الابيض المتوسط
كما رسمها الشريف الادريسي
وانشئت الاشارة الحاجة مرتسماء المدن والبلاد
نقلا عن مخطوط مزلي بالمكتبة الوطنية بباريس
عدد ٢٢٢١
بحر الروم
القسطنطينية
ايطاليا
صقلية
سردينيا
مالطة
افريطش
رشيد
الاسكندرية
القاهرة
السويس
برقة
طرابلس
قرطاجنة
سوسة
تونس
الجزائر
وهران
مراكش
سبتة
طنجة
البرتغال
اسبانيا
فرنسا
المتونة
فزان
السودان
النوبة
اسيوط
اسنا
اسوان
ربيع
القسم الاول
القسم الثاني
القسم الثالث
القسم الرابع
القسم الخامس